رُوحٌ مَفقُودَة

روح مفقودة: رواية
الكاتب: حكيم زكي آل ساو
تصميم الغلاف: إيمان محمد
تدقيق: سمية عامر
وإخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 7535 / 2018
الترقيم الدولي: 0 - 030 - 844 - 977 - 978

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

رُوحٌ مَفقُودَة

الكَاتِب

حَكِيم زَكِي آل سَاو

بيت الزيات
للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

صباح الصقيع أيها الوجع،، استقبله الشارع والمدينة نائمة، صباح بارد وجو مشبع بالرغبات، أما هي، فقد صارت إلى بعيد، قمره الأكبر، تخوم مملكته قد صارت معابراً لكل الوافدين بهوية مغشوشة، وسؤاله عنكِ أضحى مذلته الكبرى وعاقبته من يبكيه الآن، وافتقادكِ يحيله إلى رماد.

كيان محطم ينزف حتى منتهاه. ها أنتِ ترين أم لا.

مريم أملته الخطيئة وأورثه اتصالها الحسرات، حصان طروادة الهادئ، أسرار وألغاز.

ألف طريق وطريق، يأخذه ليحتويه، ينزف قلبه ما تبقى من ضيائكِ.

حكايته، أوراد ليله ونهاره وأوقاته، في أيدي شياطين زمنه المقلوب، ليس لديه يقين يا روح.

أنتِ جزء منه أم أنتِ العالم الذي أتى إليه؟! فردوسه أم جحيمه؟!

يتسلل دخان سيجارته في خيوط زرقاء هائمة، فتشكل مع بخر الصباح هالات رقيقة سرعان ما تتبدد.

بداية لا تشجع ولكنه يتابع السير، يبدو في انحناءة ظهره الخفيفة فيما يلي الرقبة كعجوز مثقل بإحساس عارم بالسأم، وإقبال هزيمة لا يعلم من أي اتجاه ستأتيه.

إلحاح غادر بغيته التوغل، أنتِ ملك لي ولسوف أمتلكك، حلم قديم ينتصب على أيام تجنح للسقوط رغم تشبثها بالبقاء.

ما من شيء سيظل على حاله.. ما من شيء، تلك حقائق الأمور.

راح يفرك يديه التي انغمس فيها البرد، وضاع منها دفء الفراش في قلب الفراغ العاري، وحينما دخل السيارة وجلس أحس برعدة تجتاح بدنه، رفع زجاج النافدة فاصطدم بوجهه في المرآة، عينان لامعتان تشبهان قطعتين من الحجر الناعم الأملس، وفم يشبه حيواناً صغيراً موثوقاً بخيط من الحرير، وملامح متكلسة.

بدا له أن شيئاً ما في داخله يتصدع وأنه في النهاية حتماً سينهار.

أزعجه وأربكه ذلك الشعور، مسح على عينيه ثم تابع النظر من خلال النافذة.

كل شيء بدا له وكأنه يجري للخلف بصورة مخيفة.

كتل غارقة في ضباب أزرق، إلى حد ما بدت متشابهة، هل فقد القدرة على التمييز؟ هل الضباب هو السبب؟ هل الدموع في عينيه هي التي تجعل رؤيته مشوشة؟ هل وهل...؟

ليلة الأمس لم يكن فيها سوى الأرق والسجائر والشاي والقهوة، وروح الحياة، وحليم يخفي في نفسه ذلك الإحساس.

صرت تشبه كلباً عجوزاً رحل أصحابه فجأة فراح يعوي كالمجنون أمام بيوت الغرباء.

- ما حكايتك؟

كان شاردا بعيدا عمن يخاطبه فلم يسمع.

- أقول مالك؟

انتبه على صوت السائق فتمتم بصوت واهن :

- لا شيء ، مجرد شعور بالوحدة.

سأله السائق في لهجة حانية :
- ولماذا أنت وحيد أيها الشاب؟ أليس لك أحد من أهل أو أصحاب؟
قال في لهجة ممزوجة بالمرارة :
- لا أحد لي.. أنا وحيد منذ آلاف السنين وحتى من قبلها.
ماذا يدور برأسها تريد بي الجنون!
راحت السيارة تقطع طريقاً خالياً، وعبر زجاج النافذة بدا له كل شيء يتقهقر للخلف بصورة مذهلة، النباتات والأشجار التي طليت جذوعها بطلاء أبيض، وأعمدة الإنارة والصمت في السيارات المتراصة، وقد انكشفت من تحت الغطاء إطاراتها السوداء فصارت من دون حماية تذكر، كجيش فقد توازنه وتماسكه، هكذا بدت له الأشياء.
هذا هو الوقت الملائم للوحدة ولها.. لو تجئ الآن، لو تشرق فتغمره بدفئها، تبزغ فتبدد فلوات ليله الحالك، تنثر نجوماً لا تحصى فتملأ عيونه ببهاء روعتها، تصب في قلبه المترع بالأسى فيض حنانها، تغمر سفوحه الثلجية بوهج ظهورها، تقطع جفوة وصال قديم انقطع بغياب .
لو كانت معه الآن لما كان للمجهول كل هذا التوجس والرهبة، متاهة لا يدري كيف يعبرها وهو أعزل.
لو.. باب الشيطان فحاذر.
قال أبوه، وظل يحبس الصياح والرفض في جسده، متى يحين هبوب العاصفة؟ متى ينفجر الجسد بما فيه؟
الأبواب _يا أبي_ لا تحتاج من يفتحها.
- هل تحدثني يا بني؟

اكتفي السائق العجوز بطرح السؤال وهو يتابع النظر إلى الأمام.
- أنت تستمتع بتلاوة الشيخ رفعت..
أجابه العجوز متنهدا :
- الشيخ رفعت نفحة.
هكذا رد السائق العجوز.
حينما يصبح القلب في جوف الجسد كقبضة ثلج، روح غريبة بلا سكن، تخوم موحشة بلا عصمة، الشدة تتوغل، والهواجس تنتصر، وتلوح الهزيمة كأمر لا مفر منه ، في حين تقف الروح عارية، من هنا يأتي الخلاص بالموت.
باغته العجوز فلم يجد سوى كلمة رددها مرتين :
- نعم، نعم.
لماذا تريد مقابلته؟ ألم تكن معه بالأمس، فلماذا لم تخبره بما تريد؟ هل الأمر هام إلى هذه الدرجة؟ وماذا عن الهاتف؟ وتمتم في نفسه ، دعنا لا نستبق الأحداث. حزين ووحيد أيها الطائر الجميل على غصن شجر الخريف حيث تقف، في حين فوهة البندقية أنت هدفها المنشود، مأساة وأنت لا تدرى بمن يتربص بك. كثيرون جداً صيادوك، صوب جيداً وشد على زناد الموت واهنأ بصيدك. أغنية قديمة لديوان كان بحوزته ولا يدري متى فقده.
"روح الحياة" لم أفقد الأمل بعد، تدرك أنها ذهبت وذلك يوجعك، روحك التي تعرفها مضت وأنت لم تزل في توق إليها، ربما يوماً تعود، هل صار انطفاءً لها، مجرد قلب تسكنه الذكرى، تتشعب فيه، تمخر بعمق سويداء القلب، وماذا عن النهاية، الانتظار؟! قلب بارد تجوس في ممراته الأوهام.
ها قد وصل.. انتفض وشعر بالبرودة تسري في كل جسده حين أدخلت يدها

في يده، سألته بدهشة :

- مالك؟

أجابها باقتضاب :

- لا شيء.

جلسا في جانب كافيه على طريق المطار، ثرثرت كثيراً، وبدا عازفاً عن الحديث.

احتسيا حليباً وقهوة. بدت جميلة، ووشت ملامحها من النظرة الأولى بذلك، بجانب غموض لا يدرك مصدره، العينان أم الشفتان أم جسدها المغمور في بنطال من الجينز أزرق اللون، وبلوفر من الصوف يعلوه معطف أنيق.

بدت عيناها رمادية في صفحة وجهها الأبيض، وعندما تحدثت جاء صوتها عميقاً ومبهماً.

- لعلك تساءلت عن السبب؟

لم ينبس بكلمة، في حين كان وجهه متجهماً.

- نعم كنا بالأمس معا، ولكن..

قاطعها :

- ولكن ماذا؟!

- أحببت أن أراك قبل سفري.

كان ردّه حاضرا :

- كنا معاً بالأمس.

ارتدت نظارتها ثم قالت :

- هل تسافر معي؟

عند ذلك قال في ضيق :

- هل أنتِ مجنونة؟

ابتسمت :

- لا، ولكني أسألك، هل هذا ممكن؟

أجابها متبرما :

- أهذا كل شيء!

هزت رأسها نافية :

- لا، هناك شيء آخر، ولكن..

قاطعها للمرة الثانية :

- ولكن ماذا؟

بدا على ملامحها أنها لن تخبره، وبالفعل هتفت :

- لن أخبرك عنه الآن. وأردفت :

- هل أنهيت روايتك؟

أجاب باقتضاب :

- لا.

بحماس قالت :

- يجب أن تجتهد أكثر. صمتت لحظة قبل أن تسأله :

- هل رأيت مريم؟

بلا مبالاة أجاب :

- منذ يومين.

التفّتت نحوه متعجبة :

- لم تخبرني!
لم يعِرها انتباها كاملا واكتفى بكلمات قليلة :
- ليس لكِ أن تعرفي كل شيء.
وكأن ما قاله لم يكن، لتستطرد :
- هل هي بخير؟
بدا وكأنه لن يجيب ثم أردف :
- أظن ذلك.
نظرت في ساعة يدها، وقالت وهي تهم بالنهوض.
- هل ستفتقدني؟
لم يجبها.
قالت وهي تنحني فوق الطاولة.
- أما أنا فيكفيني إحساسي، ما حدث كان رائعاً. ارتشفتك قطرة قطرة، شعرت بك تجتاح أوصالي، تهز كياني كله، ارتجفت.. هتفت بك، مهلاً يا عزيزي، أرجوك برفق وهدوء، وخلت أنني لن أبرأ من تلك اللحظات.
نظر إليها باندهاش كأنه يسخر منها :
- وهل برئت مني؟
- يعاودني الإحساس بك دائما فأصرخ.
أجاب في فتور :
- لا تبالغي كثيراً.
وعند حاجز الدخول دنت منه، نظرت في عينيه، واقتربت منه أكثر وقبلته في فمه.

تساءل.. هل كانت لديه رغبة في ذلك؟ لم يدرِ ولكنه أحس بشفتيها باردتين وناعمتين، وغزت أنفه رائحة جسدها، أما هي فقد لفت ذراعيها حول عنقه وضمته إليها فطغى عليه إحساس غريب، كما لو أن جسدها إلى حد ما يشبه فأراً مذعوراً وثب من بقعة مظلمة وراح يهاجمه بضراوة. أيتشبث به، أم يبغي التهامه؟ جائعة دوما جرذان الأنفاق المظلمة. لو خلعت ملابسها لتيقن من ذلك.

تراجعت خطوة وهي تقول :

- نلتقي يوم الخميس.

أعاد كلماتها متسائلا :

- يوم الخميس؟!

-أجل، ولتكن مستعداً للمفاجأة.

- مفاجأة؟!

- نعم، كن مجتهداً أكثر حتى تنتهي من الرواية. هناك مشاريع كثيرة سنعمل عليها معا. وتركته ومضت..

عاد وحيدا وتساءل.. أمن الممكن أن يحدث مالا يتصوره؟ يدور دورة كاملة، يتناسى الأمر برمته، ومن يضمن له أن الأمر ليس خدعة ولا هزيمة لبطل أنهكته موائد السكر والفوضى، طريق ملتوٍ يقوده إلى الهلاك. يا للحكايات التي تروى في الظلام، ليل قاس، وأحاسيس شتى تخامر عقله، توجس، عذاب لا أول له ولا آخر، وفي النهاية على المخدوعين أن يتحملوا الوقائع النهائية، عند ذلك تنطفئ بقعة الضوء الوحيدة، ويسقط البطل في هدوء

وسكينة، لا تهنئة ولا ورود تتساقط عليه، مجرد خنجر في الظهر وألف لعنة ولعنة.

* * *

لو كنت ملكاً ولي عرش،،

لو كنت بحق سندبادا ولي جناح،،

لو كنت سمكة ولي نهر،،

لو كنت.. إذا لما عدت وحيداً..

يوما ما كسائر أيامه، بلا خطة، بلا هدف، بلا فائدة. انزوى في ركن صغير في مقهى صغير، وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بقليل، تناول إفطاراً خفيفاً، واحتسى قهوة سوداء ، وأشعل سيجارة من أخرى، ونظر بلا مبالاة في صحيفته التي يعمل فيها، وتذكر أنه موقوف عن العمل حتى ينتهي التحقيق معه بشأن التجاوزات التي يزعمها رئيسه في الصحيفة والتي منها موضوعات تناهض فكر الدولة وتدعوا إلى الثورة على الحكومة، والدعوة إلى التظاهر، ورفض سياساتها الغبية، استبعد من رأسه فكرة سخيفة ألحت عليه بشأن الهجرة، ولم يكن ثمة شيء آخر يفعله، والأمر لم يكن مسلياً، أن يجلس ويحدق هنا وهناك لينشغل بنفسه إذا.. شيء ممل حقاً.

بدأ جولة في الشوارع ليس من ورائها هدف، وما أقسى أن يحدث ذلك والقلب يوشك أن يكون فارغاً من أحبته، ثقيلا ككرة مملوءة بالرمل، إلى أين، ولماذا؟ أن تكون مشدوداً إلى رأسك، ورأسك بين قدميك، وظهرك مشدود، وثمة غريب يدون كل ما يصدر عنك. الرعب هي الكلمة التي تعاشرك، والجريمة على وشك الوقوع.. نحن في انتظارك!

لا شيء يثيره في محال الملابس، ولا واجهات العرض السينمائي، ولا المقاهي، ولا الحدائق، ولا حتى الناس الطيبين الكرماء.

عند التقاطع لاح له عسكري المرور في زيه الأسود وشارته وعصاه، ينتصب في قلب الميدان الواسع، يشير في حركة آلية نحو السيارات. راح يراقبه.. الصيد يعلم الصبر، ورجل الميدان يعلم. المتعة يا سادتي، متعتكم الرؤية ومتعتي الفعل، أن أقول وأن تصفقوا، أن أمارس في حضرتكم سحري الخاص، وجنون عظمتي، عرض بذلك الجانب الخاص من خلال طقوسي في الجنس، أعني طبيعة الاتصال على مذهب الإمام. هذا أنا، فارس الميدان بلا منازع، علامة الحضور القانوني، حيث لا قانون سوى قانوني، وشارتي وعصاي.

يحكى أن في أزمنة قديمة قِدَم التابوت الطائر في قلب الريح، هبط مجانين خمسة غريبي الأطوار والهيئة، حقاً كانت غريبة، ولم أعرفهم _أنا الفصيح_ حتى أفصحوا لي الواحد تلو الآخر.

أنا المخمور بليل الغربة، قد ظننت الأرض كأساً من مدام، شاربها أنا وغارق فيها وميت. وأنا من لفحة البيداء صرت منها عنبراً، جسدي لها وروحي على مشارف ما يكون، تحدق بالذي يأتيها فراراً من حياته. وأنا في وجهي سكينة وفي روحي تطفو ملائكة، وتغيب شياطين، ومن خطايا البشر صنعت ملاذاً للصامتين. وأنا الواقف على باب الكريم فهابني كل لئيم، قلت للقرد وأنا مصلوب، أنت أيها المتوج قرد، وأنا نسر مجنح بكل فضاء أطير.

سكت فأمهلته حتى يتم ولكنه أشاح ثم فرّ وغاب.

قلت لهم أنا أكون ولا أكون، وحيداً في معظم الأوقات، هباء، وفي قلبي تحتدم بدايات. أنا عارف برهان الدولة المصري، من فجر التاريخ وأنا أحيا.

احتسينا قهوة، وسمعنا شعراً، ونازلنا قبيلة من الغجر، وتحاورنا، وبعدها فتحت لهم الطريق، وبقيت وحيداً يمضغني الملل.

في مدينة كهذه تبدو الوحدة عاراً، في حين تراود الأغبياء مناقير الذئاب وكأنها أحلام مرغوبة.

تذكر أن اليوم جمعة فانعطف حيث مسجد السيدة، وبعد انتهاء الصلاة خرج مثقلا بذنوب من لا حيلة لهم، وخرج لا يلوي على شيء، يسير في شوارع مدينة المآذن، وقد اعتلاه حزن لا يدري كنهه، من العدل أن يكون للوقت قلب حتى يعيد لجسده العجوز بعض الوهج الذي كان، حلم.. كالأحلام التي يغطيها الوهن، يعبر ويحدق بي وفي غضب يصيح أيها الأخرس انتظر موتك.. كهر ثمل.

يخطو عبر فراغ عار ومتعرج، خطان للبداية والنهاية، فإذا اجتاز الأخير فعليه أن يبدأ من جديد، سيزيف البائس، ولا مجال لفكرة العرض والطلب أو الرغبة أو الاختيار.

كرة صغيرة في درس الجغرافيا، جاءت تقول سنلعب معاً، معجبة هي بشهر زاد، حيث ذنبها العظيم أنها جميلة وأنهم متوحشون ورعاع، ولكنها المختارة كما تزعم لتكون خطاً دفاعياً عنهم من وراء البحر.

هل تبدو كلعبة، لديك شك مخيف، لو كانت بصحبته الآن لقذف الخوف وراء ظهره، ولكن أين هي الآن، أين حبيبته؟ هو لا يعرف، وذلك يجعله غير متأكد من شيء، وعلى الفور يتعين كل شيء، وتقف أنت كي تواجه الأمر بمفردك، مارق، منشق، خارج عن الإجماع، موصوم بالخيانة والعمالة والغباء، والجزاء موت محقق، وفي كل الحالات إن نجوت تظل مداناً، فلا

تقلب الأمور في رأسك، كلهم يقولون ذلك وبنفس الطريقة القديمة.. "من ليس له ظهر يعيش كالحمار".. ولكنك كالعادة ترد، الكلاب هي الأخرى تعيش.

سبعة أيام، أمامه سبعة أيام فقط، كافية تماما كي ينفض خلالها ركام الذكريات.

أغسل وجهي المتغضن بالماء والصابون والملح، وأصارع الغربان والوحوش، وأنتظر أن تضع زوجتي المنفصلة عني طفلها الذي نفق في بطنها منذ أعوام كثيرة ما عدت أذكر عددها.

آه من الخيبة والوحدة والضياع والموت تحت عجلات القطب الواحد، والزعيم الواحد، وحروب الوكالة، والإرهاب المحلي بالدعم الحكومي ومنظمات العدالة وسياسة القطيع.

وحيدا صار، عاريا يطوف شوارع البرد والوحدة والفراغ، يشاهد شخوصا بلا قلوب ولا رؤوس، والكارثة أنهم يتربعون على مقاعد عالية في حين يفترش الجميع أرضا قذرة.

يتنفس الضجر ويختزن حكمة الصالح، الصبر يفضي إلى الرحمة، والرحمة أبواب رزق بلا حدود، وعليه أن يتقن فلسفة الرجم بلا أحجار، فالحجر جريمة، والموت تحت ضربات الأوغاد، والتنفس بخياشيم البقر الأعجم، زمام الأمر في يدي، ولكن أين روحي، أين هي الآن؟ في رأسي، في ظهري، في أطرافي، أين الخلاص اللعين؟ الهجرة إلى بلاد النفط، أو المنفي، أو العزلة، أو.. ما المعقول؟! ذلك وهم تصوره لي شياطين الوقت والجبن والفساد.

أن تصير بلا هوية، وأن تفقد جواز العودة إلى وطنك، صواب أم خطأ؟!

طيور الفلامنجو ترحل في أسراب إلى موطن جديد، ولكنها تدرك أنها إلى الوطن الأصلي ستؤوب. بالنسبة له الأمر مختلف، فلا شيء في انتظاره أو حتى وداعه، ولا شيء يمسك به ليظل على قيد الحياة. وما من مكان يقبل استضافته إلا بشروط تقذفه بلا رحمة في عين الخوف. وجهته مجهولة، وزاده احتضار وثني ينهش روحه، وموت بطئ يمتطيه. وإلى روحه الباردة يتسلل خوف جامح فيتركها بلا علامة.

روح حياة المدينة التي ولأسباب لا يدريها نكست رايتها وأعلامها المشرعة، هجرة بلا موعد وبلا هدف.

اهتز البيت وطار الدفء وسقط الضوء في خلايا العتمة. نأت ولا يعرف لم..؟! أخذت معها كل الأشياء الجميلة، وخلفت بعدها ذكرى وجرح واشتياق ولهفة.

لم يكن بطلا ولا هي طلبت، كانت تعرف مثلما يعرف، في زمن الظلال والرسوم المتحركة وخيال الظل وعرائس الماريونت يصبح الحديث عن الأبطال مجرد لغو وحكايات لتمضية الوقت..

من يعلق أجراسهم فوق رايتنا؟ أنت أم حارس بائس؟

لا فضيلة يدعيها الوضيع، وما من بطل يهتف ها أنا..

فارغا خرج.. فارغا عاد.. في يديه قبض ريح، وفي قلبه جرح، وعقل تباغته الضلالات والأوهام والانكسارات، وأوهام تقذفه إلى متاهة، وليس بوسعه أن يراها أو يسمعها أو حتى يتخيلها، ولكنها مدمرة كما يشعر.. ينفث أحزانه في دخان أزرق وأحاديث مملة فيما كان وما ينبغي أن يكون. دفتر صغير لا يستوعب حكايته، ورد نهار، وورد ليل، والوقت كل الوقت في قبضة تدعى

الحكمة ومنح العفو.

لست على يقين يا روح الحياة، هل أنتِ مني، أم جزء تالف يسكن روحي؟ هل أنتِ العصر، أم العالم الذي تنشده أحلامي؟ جحيم أم رياض أصبو إليها؟ ناجية بكِ أيامي أم أنتِ منفاها؟ القلوب الصغيرة تهزمني حينما تلح بالسؤال، هل فقد الصولجان بريقه إلى الأبد؟

سقوط وشيك يا حبة القلب، إلى بعيد صرتي، في حين ظله الشارد في الشوارع يدور آخر دورة قبل السقوط المخيف.

دفع رسم الدخول إلى القلعة، ومن أعلى نقطة فيها نظر، وراحت الأشياء رويدا رويدا تغيب حتى سقط القرص البرتقالي في النصف البعيد، عند ذلك آب للشارع فراح الليل يغريه بالنوم بلا قيام منتظر.

روح.. انتظري.. روح.. روح!!

ولكنها كانت تبتعد، وصوتها يجئ مسحوقا..

أرجوك دعني ولا تحاول أن تراني.

ولم يكن يسمعها. كانت في جوف الزحام والضجيج والغبار، وقف خاويا يحملق في كل ناحية، بينما نفسه توشك على السقوط، وجسده كعلامة طريق مضللة، عود فقد نضارته، والشمس أبدا تتعامد عليه، وشيش بلا مصدر وليل بلا وجه، للشعور رائحة الحزن، وفي البدن وهن عارم.

وميريت تنتصب على رأسه قائلة :

- حدثتني عنك بشكل رائع، أنت خطير وشجاع وصورة جميلة وانطباع رائع لن أنساه.

وعند قدميه كانت مريم.. تحرك يا مسطول، البنت تهتم بك، هيا اقترب، إنها تتهيؤ لك.
ومد يديه فقالت مريم مردفة :
- الحق بها، لا تتركها، حاول ألا تدعها تفلت منك، فهي فرصة رائعة.
في هوس تمتم :
روح؟!-
أجابته :
- بل أنا ميريت، هل نسيت؟ أرجوك دعني.
لن أفعل.-
روح في غيابها وحضورها، كون وخلاص ومدار ووسيلة. يظل من خلالها حيا، إن تفارقه يمت. انتفض حي حقا، أم رعشة أخيرة قبل سفر الروح، محاولة لنخلة تقف في وجه الريح، يبث الظمأ في رحابها الهلاك.
عندما دخل بيتها للمرة الأولى، لمح جرواً صغيراً يجري في اتجاهه، خاف وتسمر في مكانه، انكمش، وخالجه شعور أنه مؤذ، ولم يتقدم إلا حينما صفرت له ميريت فركض صوبها، عندئذ أشارت له فقبع تحت قدميها. امتلكته فصار لها أم تمكنت منه بدفق الرغبة والتحول والمسايرة؟ من منهما بادر لقتله، أم هو التواطؤ على جلد الفريسة؟
كان يجلس في هدوء، ورأسه بين يديه، عندما دخل عليه ثلاثة رجال، وكان بالحجرة مصباح يتسرب منه ضوء كابي ، ولم يكن متأكداً بعد عندما رفع عينيه ونظر، ولكنه يحاول أن يعرف. الأيدى تغطى جسده فيبدو عاجزاً عن فعل شيء .

تعاون معها، عليك أن تقوم بذلك، وعلى طريقتنا، وبما يليق بسيدة أيها الجلف..

يا صديقي نريد لك الخير، إنه هدفنا، ومن الحماقة أنك لا تفهم ذلك.

وهو في طريقة للحصول على أحدهم تعثر فانكفأ على وجهه فصرخ من الألم:

- أرفض أحلامكم، وأكاذيبكم، وكل ما يتعلق بكم، أبداً لا أنتمى إليكم.

وانطفأ المصباح. تواصلت تكّات رتيبة، وانتظمت لكي تصنع صوتا عاليا تمكن منه فشعر بأطرافه عارية ومعقودة.

منتفضا قام وهو يحاول أن يسيطر على اختلاجات عارمة وفشل، يقطر العرق على كل جسمه ورعشة واهتزاز وفتور، عرق بارد وكريه.

بعينين مذعورتين يمسح الردهة الصغيرة محاولا الإمساك بشيء، وبصوت تخالجه حشرجة يهتف :

- لست فأراً لتجاربكم الفاشلة ومشاريعكم الوهمية، أنتم يا كلاب البحر تعشقون القذارة .

واحتضن ساقيه . لم يكن هناك أي شخص!! ماذا إذا؟ غياب ممضِ واحتضار طويل، فمن أين يطل؟ ومن أي جحر تندفع تلك الحشرات الصغيرة البغيضة كي تهاجمه بتلك الوحشية؟

منذ قليل كان نائما، جسده مسجى، ويداه معقودتان تحت رأسه، وعيناه مغمضتان، وربما كان يفكر في بعض الأشياء، حلم، مجرد حلم ، وإن لم يكن كذلك فماذا عساه يكون؟

يصغي لصنابير المياه وهي تقطر، وتكّات المنبه، وضوء الأباجورة في خيط رفيع يدلف من خلال فرجة الباب ويتبعثر ضعيفا على الردهة، وهو الآن

يجلس على البلاط ليس متخيلا ولكنه حقيقي، هو بخير وسوف يتيقن، وحملق وكان يبدو للوهلة الأولى أنه عار، وبدا المكان مكتسيا بالغموض، ضباب وفوضى، شخص ما قد دخل أثناء غيابه لكي يعد له مفاجأة مثلا، ولكن أين الورقة؟ أحيانا يرى ذلك في الأفلام العربية، يتذكر أنه عاد متعبا بعد يوم حافل فوجد الشقة تفوح موتا، نثر بعض الماء البارد، وتجرد من ملابسه، وضبط المنبه، وبعد ذلك تمدد على البلاط، ذلك كل ما حدث، كان هادئا وهو نائم، أنفاسه منتظمة، ضربات قلبه بمعدلها الطبيعي، ودون ذلك كانت عيناه مفتوحتين.

مريم خارج الوطن، وفي الصباح غادرت ميريت، من إذا! هل سقط من الصنابير، من تحت الباب، من المصباح؟ ليس معقولا، من إذا؟ أنت متوحش، صبي صغير مجنون. صوتها مازال يجئ رغم إيغاله في البعد، بذكرياته الفواحة نزقا، وهي ترقى به إلى درجة الهوس، صوتها البالغ الحضور، والصوت العندليبي يغني، على قد الشوق، في نفس الوقت كانت أمه تجلس في مواجهة موقد الطهي، تلك السيدة لم تكن تفكر كثيرا في الحزن، وما شكله، ولا كيف يجئ، كانت تدرك أن الموت إغفاءة عين، ولكن الحزن من صنع البشر، مباغت وغادر كطلقة نارية، مدركة بحق لعملية الضحك، فكانت تضحك دائما، أمّا هو فلم يجد سببا يجعلها تفعل ذلك، اللهم إلا السبب الحقيقي أنها أمه التي يحبها بقدر ما يحب صفاء البحر واتساعه.

اندفعت عبر أنفيهما رائحة الطعام، بسطت يدها فجلسا إلى جوارها، كانا

هادئين، في حين عيونهما تحملق في الإناء، وكان البَخر يتصاعد في هالات سرعان ما تذوب وتتلاشى.

قالت المرأة وهي تبتسم :

- في انتظارك علقة ساخنة.. وضربت يد الصغير وأردفت في لهجة محذرة :

- كونا على حذر فالطعام ساخن. وتغرق في الضحك فتظهر أسنانها صفراء مفلوجة.

تركت خلفها خوف عاصر وضباب ما وراء الحدود المخيفة.

زوابع ودخان وحيرة مريم وميريت، شيء غير مفهوم، كما لو أنه طاعون يريد أن يأخذ كل شيء، ومد يده فانفجر ضوء قوي..

في بقعة مظلمة كان يختبئ لها، بحيث لم تكن تراه، وذلك يجعلها لا تعرف ما ينتظرها، حيلة خبيثة يعدها الصبي الصغير، تقدمت بضع خطوات، ولسوف تسقط في قبضته لامحالة، تحفز لها، سينقض عليها الآن، لا ليس بعد، ليصبر حتى تكون في متناوله، الهدف أن يجعلها تخاف.. حبس أنفاسه ورفع يده وفجأة.. ارتاعت البنت وانفجرت في بكاء وصياح.

- أنا مخاصماك.. وجرت نحو الخارج.

متوجسا مما حدث، وما سوف يحدث، تداهمه عاصفة من مشاعر مختلطة، يصبح البيت كما لو أنه محاصر من كل جانب، وهو في حكم المطلوب للعدالة، حيا أو ميتا دخلت في عينيه التعليمات والأوامر والنواهي، ومن الجدران أطلت الأبواق تفتح محاذير شتى، مكانك ولا تتقدم خطوة. لا تفتح نافذة أو باب أو مذياع، لا تشعل سيجارة ولا بوتاجاز ولا مصباح، ولا تستخدم الحمام، ولا حق لك في دخول المطبخ، لا تفكر حتى في مغادرة

المنزل، ولا تحاول طلب المعونة، وقبل كل ذلك لا تفكر وتيقن من شيء، الرعونة تجعلك هدفا جيدا لنيران بنادقنا.

أنت محاصر، وعليك أن تفهم ذلك، ننصحك بالتروي، فزن الأمور بمنطق سليم، وأخيرا.. حياتك مقابل الطاعة، ويتسع فمه للضحك، البنت تجري وهو يحاول الإمساك بها.

روى لها حكاية عن القردة التي التهمت التماسيح فضحكت، ولكنها غرقت في البكاء عندما قال أنثى الدبور تزوجت رجلا قبيحا فأنجبت ذبابة أطلقت عليها اسم مس نجفة وتناست ما ألم بها، وأخيرا سحبها من يدها وانزلقا صوب النهر..

وبكى دون سبب، فأشفقت عليه ومنحته قبلة على خده، أشعل سيجارة وراح ينتظر شيئا ما ظن أنه سيدخل بين لحظة وأخرى، مد يده ومسح على شعرها، كان يحب ذلك، لم تكن تخاف مني ولا أنا أخاف منها، اكتشف الآن حقيقة الأمر، وراح الدخان الأزرق يشكل دوائر وهالات رقيقة تسبح حوله في حركة بطيئة لا تكاد ترى، توتر وإن كان بلا داع، فالأمر في حاجة إلى طبيب.

صغيرة كانت، جسدها يشبه تفاحة لم يكتمل لونها بعد، وردي شفاف، ناعم كندف غزل البنات، هش بصورة تدعو للحذر عند لمسه، شعرها الأشقر كان طويلا يغطي صدرها وظهرها وكتفيها الضيقين في استدارة لطيفة عندما يتبعثر، عيناها رماديتان والفستان القصير يظهر ركبتيها اللينتين، وكان يُبدي بوضوح طعم الأنثى، لرائحتها وقع مبهم، وفي شفتيها بداية ولوج إلى سن المتعة، عطرها الفواح يطيح بعقل الصبي إلى بعيد، كان يقبل جسدها وكانت تدفعه إلى القضم.

لم لا تجعل النوافذ مفتوحة؟ هل تخشى شيئا؟ كلا، ولكنها من أجلي أنا.
أنت لا تعرف ما وراءها. وتسأل الصديق، ما يكون وراءها؟ شياطين! ستكتشف ذلك بنفسك.
ولم تمر سوى لحظات، حتى سمع صوت استغاثته فانفجر ضاحكا مما جعل كوب الشاي ينزلق من يده على البلاط.
- ألم أقل لك، الحشرات هنا وفي الليل على وجه خاص، تختلف عن كل حشرات الدنيا.
نوع خاص ومميز، سمينة وغادرة وبلا مبدأ، كأنها مولعة بمص دماء الكرماء أصحاب الشهامة وكرم الضيافة.
وقفز صديقه وهو يقول :
- ذلك يكفي حتى لا يقف في وجهها أحد.. حشرات متغطرسة.. نساؤها غيد ورجالها عبيد.. في منتهى الحكمة والموضوعية.
ها أنت قد أدركت الحقيقة ومع ذلك هناك ما يجعلها تقلع عن جنونها وممارسة أساليبها.
- وما ذاك؟
- النور.
أول ابتسامة مند الصباح، وفي جو خانق ومتعفن، وذلك رغم انتهاء خريف ماريشالي متغطرس، ولكنه شتاء نكد وبشع، أنت تحتاج إلى هواء جديد ونظيف يمكن أن يزيل عنك غبار الأيام، وملوحة الوحدة، ومرارة الفراق، ولكن ما تنتظره أكثر عفونة وبلادة وعجرفة، وأنت ترى أنه ما من سبيل سوى النوم أو الموت أو دون ذلك "الجنون".. وارتخت أصابعه فراح يتابع

السيجارة وهي تسقط حتى انتهت إلى الأرض وكان الظلام يلف المكان بغلالة كثيفة، ذلك مدعاة للضيق، حق الشكوى مكفول، كل الحق، بعض الحق، لا فرق.

ومكث خلف النافذة يراقب ذلك الشيء البعيد، يومض وينطفئ، وفي كل مرة يتغير اللون..

ألوان قزحية، تبدو كنهر في قلبه كومة خضراء يأسها مفرط، هل أنا خائف؟ الخوف مزحة سخيفة ولا مبرر لها، زجاج النافدة محطم، وكم أكد لنفسه أنه سيجلب بدلا منه، وشيش قديم يهاجمه التراب بصورة فجة، وكذلك أكد أنه سينظفه ويطليه، كل يوم يؤكد ولكن لم يتغير شيء.

الولد الأهوج يتداعى..

في بدء الجولة يتداعى..

ها قد خابت في مسعاها..

ظنّت أن القرش يساوي الكلمة..

هيهات..

البنت القمحية..

صاحبة الشعر الأسود والعينين البارعتين..

تسقط في دائرة القرش الماكر..

ليس أول فشل، وليست آخر محاولة، وعليه أن يحاول مرات عديدة قبل أن يعلن استسلامه، رمق المنبه بنظرة خالية من الإهتمام.

منتصف ليل المدينة، والموقع على الكرة الأرضية، في المركز، والعمر في منتصف الحلقة الرابعة، لا كبير ولا صغير.

من يمتلك العملة؟! يمتلك الوجهين.. والفقراء بين بين..
عندما رآه لأول مرة في الصور، حزن على نفسه، قبل أن يحزن عليه، كان في

صورته التي التقطت له وهو في فراش المرض، يبدو شاحبا بصورة غريبة، وجه متغضن، وجسد منهك حدّ الموت.
قال حانقا، أطفأه الجهل واعتمته زعامة حمقاء، ودفع رأسه لأعلى، ثقيلة جدا، تنفس بعمق وصعوبة، واستقبل رأسه وهو يهوي بسرعة إلى أسفل، ماذا أصنع الآن؟
قطع الحجرة ذهابا وإيابا عدة مرات، الأوراق التي تحتاج للقراءة، والوقت متاح، ساكن وبصورة مضجرة، هناك قرار عليه أن يتخذه.
قيل له.. البنت مهتمة جدا، وفي نفس الوقت ترغب في إقامة علاقة أكثر دفئا.
مريم أخبرته بذلك، ممّ يخاف إذا؟ هل ستأكله؟ وقد راجع مريم صديقته الحميمة فأكدت له ذلك، ميريت صديقتي وقد أطلعتني على ما تريد، قالت أنه يعجبني، يروق لي، اشرحي له ذلك بطريقتك، وقالت مريم معقبة الأمر في يدك، أليس كذلك، غسل وجهه بماء بارد، والتهم شطيرة، وتناول صحيفة جلبها في الصباح.
نفس الأسطوانة القديمة الغبية، ارتفاع الأسعار والبطالة والزحام والديون والعلاقات الخارجية والداخلية وفلسطين واللاجئين، وحكام إسرائيل والفضائح والنصائح، وكلما زادت الأكاذيب زاد الفساد..

نهض مثقلا بالأسى، جمع القمامة في كيس بلاستيك، ووضعه أمام باب الشقة، كل يومين أو ثلاثة يمر الأخرس ويلتقطها.

عندما يكون في مزاج جيد يجذبه إلى الداخل ويتحدث إليه، يندهش من طريقته الغريبة في التدخين، فطن وذكي، وكل ما ينقصه أن يسمع ويتكلم، وبطريقته يشير له عن عدم زواجه حتى اللحظة.. ربما لا يأتي اليوم..

مريم في بيتها الجميل، وميريت غادرت في الصباح، من أين يأتي الخوف إذا؟

كانت مريم الصغيرة، جسدا يشبه التفاحة، كان مهووسا بها من كل الزوايا، وكان أجمل ما فيها فمها وشكل شفتيها، في أول لقاء معها راح ينظر إليهما حتى ظن أن الوجود من حوله قد اختفي، قال لها شفتيكِ كخيوط الحرير، أمي كانت دوما كانت تقول ذلك.

نظرت مريم في عينيه وسألته هل تقدر على وصفهما، ولكنه ارتبك واحمر وجهه، فمنحته قبلة أسكرته..

كنت واثقا منك ومن نفسي، ولكنك غبت فكرهت بعدك العالم، تحررت من قيد اللحظة، أدمنت القدرة على تعذيب ذاتي وأفكاري، وصدقا.. بدأت أتقن فن الحقد.

لم أعد سعيداً بنفسي ولا بك، أحيانا يراودني إحساس أنك مجرد بقعة ضوء سرعان ما تتلاشى في العتمة، ولكن كل شيء يغيب إلاكِ، كل شيء يمكن تعويضه إلاكِ، أكرر البحث وفي النهاية أرجع خائبا أجر أذيال خيبتي وإخفاقي، ليل بلا مأوى، وجهكِ كان ك كرامات الصباح، فصار الصباح بعض بقاياكِ، يعذبني حليم كلما غنى "على طول الحياة نقابل ناس ونعرف ناس" أتعبني، حتى جعلني أحطم وأمزق كل ما يتعلق به، ورغم ذلك يجئ ملفوفا

بالحزن من كل مكان، من عند الجيران والشارع والمقاهي والمطاعم وصالون الحلاقة..

أحملك في قلبي كما أحمل كلام أبي بين حناياي، أحمل الجرح، والجرح يحملني إلى أحضان ميريت، يورق الجرح ولا يخضر الياسمين.. والآن ماذا أفعل؟

نصف رواية، نصف مشروع، ولم لا؟! لعلها تترجم، لعلني أذهب معها، ماذا لي في هذا العالم، من يسأل عني.

جسده ينضح رغم الشتاء بالعرق، يتجرع أكواب الماء، شيء غريب، من صحراء إلى صحراء، ومن جفاف إلى جفاف، يشعر أن شرايينه وعروقه تمتلئ وتتشبع بالماء، وقلبه يتوقف عن الحركة، ويشعر بحالة إغماء فيسرع إلى الحمام.

قيل.. لم تبرك الحيوانات المريضة لسبب أو لآخر يقوم أصحابها بتشريط آذانها بالموس حتى تنفض الدم الفاسد، وبعد ذلك يسحبونها إلى الخارج لتنشيط الدورة الدموية ومن ثم تبدأ في الاجترار.

فتح صنبور الماء وراح الماء ينساب من فتحات الدش على مناطق جسده الملتهب، لماذا يشعر أنه مريض؟ دَعَك جسده ثم لفه بالمنشفة، وتناول بعد ذلك قطعة لحم باردة، وقطعة خبز، وقشّر برتقالة، وأعد كوبا من الشاي، ثم آخر من القهوة، حتى شعر ببعض النشاط يدب في بدنه.

اليوم خمسة، والتقويم لا يكذب، وللأيام وجوه وعادات وغرائب.

اليوم خمسة، نفس اليوم الذي نأت فيه روح عنه، فأصبحت الساحة مهيأة

لدورة مكتملة الحضور من الهزائم والإخفاقات ومحاورات لعينة ومحاكمات بلا قانون ولا عرف ولا عادة.
تجارب الحواة وألاعيب السياسة وما يزال الحبل فوق الرأس لا يغيب، والحلقة تنتظر من يملأُها.
رواية.. ولم لا؟! سفر إلى الخارج.. ولم لا؟! تخلي عن المبادئ.. ولم لا؟! ولا ضير من التماهي.
الماضي في المتاحف، والمستقبل.. من يَعلمه أو يحدده أو حتى يتيقن منه؟!
أما الحاضر فهو هنا..
ميريت.. مريم.. روح.. مريم .. روح .. ميريت..
أصوات تعبث في عقله حتى ألقى برأسه دون أن يدري على كومة من الورق.

* * *

مشهد خارج السياق ..

القاهرة ..

مدينة كل الوجوه.. كوابيس الفجر المتعب والأحلام الرمادية القاسية.. نصل السكين الحاد لفتاة تنتظر وشاب يفتش عمن يقبل به بعد ما زال طهر الأماكن والأشياء، تنتظر الشروق الذى تلبسه غروب قاهر، الأضواء تومض كعيون أفاع قاسية، والحركة أبدا لا تكف، الليل كالنهار في قلب الشوارع الفسيحة، الفنادق ومكعبات الليل المنتشرة على ضفاف النيل، الحقائب الأنيقة، ونزوات أصحاب المال والأعمال، والخادمات القادمات من آسيا، والقطط الصغيرة والكلاب الأنيقة التي تلتهم طعامها من صحون خاصة.

القاهرة.. والأحياء الفقيرة على مرمى حجر من أحياء الأغنياء.. تنام مثقلة بالتعب والإعياء، ونشاط سينطفئ في نهاية أداء الواجب، أو داخل الحمام تحت بئر السلم.

ركض جيادها حبو، وصهيلها صمت..

حاراتها وأزقتها ضيقة وخانقة، وملفوفة بغلالة رقيقة من ضوء شاحب مختلط بظلمة ثقيلة، والبيوت متلاحمة، ومتآكلة الجدران، واكبت أجيال وثورات وتواريخ، تبدو الآن متداعية، ملجأ للعقارب والعناكب ومستودع صراصير الليل وخنافسه، مرحاض للخلاص من بول محتبس في مثانة منتفخة، والضفادع تتقافز في عرض الشارع، والأولاد رغم ذلك يلعبون، يتخلصون من نشاطهم بالصخب والانفعال وركل الكرات وقذف البلي وممارسة الألعاب الصبيانية..

"حورس" كان حاميا، كان طفلا.. مجرد طفل، و "ست" كان طوفانا، جراد قادم من بعيد.. هل كانت الأسطورة خادعة.. "أوزوريس" الطيب مات قبل عام من حمل "إيزيس" ، قال لها الطبيب : حمل كاذب. بكت ولم تصدقه، وراحت تبكي حتى صنعت دموعها أخدودا صار فيما بعد نهرا، وكان "ست" يخلع ملابسه كل مساء ويمضي إلى النهر ليبول فيه.

كان "إبراهيم" باشا يركب حصانه في ميدان الأوبرا، ويحذر "ست" المجنون من سوء العاقبة، ولكن ذلك لم يكن ليشغل "إبراهيم" باشا عن التأمل والصبر.

نظرت في الكتابة المدونة على وجه الحجر، كانت عن الميلاد والانتصار والموت.. لديه تاريخ حافل.. صال وجال وقهر قُوّادا وفتح بلادا، ومات في النهاية..

هناك سِيَر من الجلد ملفوف حول وسطه وغدارة وسيف، وتحته حصان أبيض من الحجر.

أمن الممكن أن يقفز الجواد في لحظة ضجر؟ كان مُهرا فتيا، وكان الباشا متعبا عندما قفز الجواد، تفكك الباشا إلى مائة قطعة واختلطت الأجزاء، ولا فائدة منه، لن يصلح بعد الآن لشيء، ولكن من الممكن أن ننزع قلبه ونزرعه في جسد آخر.

قرأت فيما بعد أن الباشا لم يكن موجودا من الأصل، ولم يكن هناك سوى إصبعا معلقا في الفراغ يشير إلى شيء نحاول معرفته.

* * *

هسيس الليل الحاد، وصوت السكون المبهم، ورائحة النوم والقلق في البيوت، وفي الليل لاتكف السيارات عن الحركة، ولا عن سرعتها وجنون سائقيها.. الفرص السانحة ونساء الليل..

في الصباح نزل من بيته، وراح يبحر في قارب السكون، ممسكا بتلابيب الوهج، مأخوذا بالصوت الرقيق العفوي، وحينما أدركه التعب وأرهقه الجوع والعطش آوى إلى شجرة عتيقة على شاطئ النهر القديم، لم يتمكن إنسان من حصر عمرها الممتد في السنين الموغلة في القدم، وكان يتدلى من الشجرة ثمار عجيبة الشكل.

هجع الرجل مفتوح العينين، ثم مد يده وتناول ثمرة، وعندما تذوقها أعجبه طعمها قضم منها حتى شبع، كان طعمها حلوا، وعند ذلك رأى البنت الصغيرة التي كانت واقفة بالقرب منه، كانت تتأمله، ثيابها قصيرة، وشعرها طويل جدا، وجسمها تحت الثوب بدا جميلا وناضجا مثلما الثمرة التي قضم منها وذاق حلاوتها، السيقان والأفخاذ والصدر والشفتين، وكانت عارية عند البطن.

ضحكت له، وكان مضجعا تحت الشجرة، دنت منه وجلست في هدوء إلى جواره دون أن يطلب منها، وظلا صامتين وقتا طويلا، حتى أمالت رأسها على كتفه وأغمضت عينيها..

مد البحار يده ومسح على شعرها.. نامت البنت سريعا، وبعدها أفاقت ثم قالت وهي تمسح عينيها، ارفعني حتى أقطف لنا ثمرة، ولكنه هو الآخر قد نام.

قامت البنت الجميلة وحملته ودخلت به إلى الكوخ المصنوع من الخشب

والطين والقش، وكان معروشا بفروع الشجر وقش الأرز، أطعمته خبزا ولحما، ووضعت أمامه إناء من الفخار مملوء بالشراب، وراح البحار يشرب حتى ثمل، وأصبح عاجزا على حمل جسده الثقيل، قامت البنت وحملته بين ذراعيها ووضعته في الفراش، ونامت إلى جواره في صمت، وفي الصباح أخرجت من جسدها طفلا جميلا أعطته له..

حمل البحار الطفل ومشى أمامها وهى راحت تتبعه.. إلى أين يقوده ذلك الوهم؟!

* * *

كوبري الجلاء، الهلال والصليب وأرواح الشهداء، أمن الممكن أن تكون الدماء باقية حتى اليوم ولها نفس الرائحة؟! يقولون دماء الشهداء زكية ولا تجف.

كانت أجساد الشابات والشبان والأطفال والعجائز تتساقط كعصافير مقصوصة الجناحين، والرصاص يباغتها من كل مكان، وكانت الحناجر تهتف دون انقطاع، والرصاص ينهمر عليها، حرية.. حرية.. حرية.. لا نريد سوى الحرية.

هل تعبر عليها السيارات كل يوم وتدهسها كل لحظة؟!

الرقم 19 لم يكن إلا رمزا للخلاص والحرية، ثم صار رمزا للقهر ودليلا على التوحش، ثم أضيفت عليه بعدها أربعة، فأصبح يشير إلى الفساد والتبعية.

لعلك لا تعرف أن جدك حارب في الجزائر مع الثوار، وأنه مع رفاقه في جبهة التحرير تمكنوا من بناء مسجد في إثيوبيا لا زال موجودا حتى الآن.

جسر للشهداء وجسر للعشاق، تحالفات قديمة وأخرى جديدة و"فاروق" لم

يكن إلا مقامرا، والهرم إرث فرعوني، والكازينوهات حضارة ملاهي، أيهما من عجائب الدنيا، الموتى أم الأحياء، السكارى أم العقلاء، الوطنيون أم الخونة؟ من الذي نطق بحكم الإعدام المؤبد والجلد على الفلاحين في دنشواي؟ وماذا حدث له؟ تقوده الأسئلة أحيانا إلى حافة الجنون.

ذات يوم.. سأل مريم كيف تعرفت بميريت؟

أخبرته وقتها أنها صادفتها على متن طائرة في إحدى السفريات إلى الخارج.

كانت مريم تهوى قراءة الروايات، وبالتحديد أجاثا كريستي، وكانت درجاتها في مادة الجغرافيا سيئة جدا، كانت تقول لا أحب دراسة الأماكن أحب معايشتها، ولكنها كانت ماهرة في اللغات.

كانت تقول له عن ميريت أنها تحب التاريخ الفرعوني.

التاريخ.. كذاب أنيق، يرتدي حلة برباط أحمر، ويتدلى من جيب سترته منديل أحمر، وفي عروة الجاكيت وردة حمراء.

أنت ذكي.. أسكره الشوق والذكرى، أم يجتاحه مرض لا يعرفه بتأثير التقلبات الجوية ورياح الشمال.

عندما أوقفه المعلم في درس الجغرافيا وسأله أن ينظر في الخريطة ويتتبع النيل في خط سيره ويصف له ذلك..

رد عليه سريعا : من الشمال يا أستاذ..

قال له المعلم : انظر جيدا.ونظر، رآه يأتي من الشمال.. دنا منه المعلم ونظر ولم ينبس بكلمة.

رآه يأتي من الجنوب، من أعالي هضبة الحبشة. هناك حيث المنبع، ثم يتفرع إلى دول المصب..

في البيت وعندما أعاد النظر رآه يجئ من الشرق أو من الغرب، ثم أخيرا رآه يتدفق من أسفله فراح يدخل فيه.
وقتها نادته أمه وأوصته قائلة :
- ولدتك بجوار النهر، وغرفت لك بكفيّ هاتين وأرضعتك، ثم انتصبت واقفاً كالمهر على قدميك، وبعدها انطلقت تعدو كالريح.
المغامرة نوع من الجنون، والجنون يقود إلى أمرين "السجن أو الموت".
وعلى امتداد كورنيش النيل -جسر التنهدات المصري-، يتهادى العشاق، اليد في اليد، والكتف في الكتف، تغير الناس قليلا، ومن الممكن أن ترى رجلا يضع يده على كتف زوجته، وأخرى تضع رأسها على كتف رجل في سيارة مزدحمة بالناس.
قشور الترمس الأصفر الرخو على الكورنيش كعيون صفراء ميتة وجافة، تطؤها الأقدام ومن ثم تجرفها مكنسة جامع القمامة إلى النيل -شريان الحياة- كما يعرفه الجميع ويتغنى به الناس.
الماء بعيد جدا، ورغم ذلك تفوح منه رائحة الموت، كما تفوح رائحة الحياة، ومن أعلى يبدو الارتفاع مخيفا ومهددا للحياة، شعر بقشعريرة تسري في بدنه، فأغلق الجاكيت عن آخره بالسحاب، وأشعل سيجارة.
تتراقص الأضواء مجنونة، وغير عابئة بأحد، والأسماك تتقافز لتلتقط قطع الضوء في بهجة نزقة.
سمع ضجة تأتي من بعيد، وعندما اقترب سمع ما يوحي بالأسى والحزن.

* * *

رأيته يلقي بنفسه في النهر.. آخر دفقة دم من قلب سقط للتو في قلب التابوت المائي الكبير..

كل شيء إلى زوال، حيث لا تكف الأشياء عن الحركة، كلّ يمارس دوره خلال الحياة، الكلاب واللصوص والسكارى والخونة والوطنيون والجلادون والقتلة.

آه.. كم من الوقت يلزمنا كي نتخلص من الأحزان والمآسي.. أرجوك اتركني في حالي، مثلي لا تُحِب ولا تُحَب.

اندهش ولكنها استرسلت.. لم يعد العصر ملائما، الحياة قاسية، والجوع يفتك بالجميع، وأخوتي مثل زريعة السمك، ماذا بعد أن أحبك وتحبني، هل سنتزوج؟ ربما نعم، ربما لا.. لماذا نجلد بعضنا؟ لماذا أعذبك وتعذبني؟ هل أنا أحبك؟ نعم أنا أحبك، وقد أموت إذا تركتني، ولكني سأتزوج غيرك.

- روح..

وضعت إصبعها على فمه ولم تترك له كلمة.. وأشاحت بوجهها بعيدا نحو العوامات وملاهي النيل.. تتراءى لهما كأماكن محظورة مكتوب عليها ممنوع دخول الغرباء..

أنا أيضا غريب ووحيد مثلك أعرف ما ستؤول إليه الأمور، الحب في بلادنا يقتله الجهل والفقر، والأحلام لا تنبت في رمال التخلف والقهر، ولكنه يعرف قلبه وهو يرتعش، ينبض كطوفان من الدفء والطيبة..

- روح، دعيني أهتم بك، أنت قطعة مني، نصف روحي، نصف كياني، وكل أحلامي..

وقتها احتبس الكلام في صدره وجف لسانه، ثم رآها وهي تبتعد وتغيب، ثم

هبط الظلام وراح يطويه كقطعة قماش، ثم طرحه في فراغ مخيف ليلتقطه الشارع.. من جسر السادس من أكتوبر إلى الجلاء إلى قصر النيل، صار العالم جسرا طويلا يُفضي في النهاية إلى ميدان التحرير..

ساعات ويجئ ذلك الصباح فيكشف الانتظار وجهه من جديد.. مجمع التحرير، والوزارات، والمصالح، والمتاحف، والمطار الدولي، والبنوك الكبيرة، ومترو الأنفاق، والمعارض، والمهرجانات الدولية، والندوات، والمسارح، ودور العرض السينمائي، واللقاءات السرية والاستراتيجية والأوبرا، وأكاديمية الفنون، والسفارات، والقنصليات، والصادرات والواردات.

أما عند مجيء الفاطميون لم تكن هناك قاهرة، كانت طيبة ومنف وتل العمارنة والفسطاط والعسكر والقطائع..

العاصمة دائما تتبع الحكومة، ثم مر النجم وجاءت "القاهرة"..

القاهرة.. التاريخ والجغرافيا والأكاذيب..

يبدأ بالميدان ومنه يعبر إلى مصطفي كامل ومحمد فريد وطلعت حرب، يمر عليهم في طريقه وهم في أماكنهم الغير مستديمة مثل ساحات الحروب، لابد فيها من عمليات لإخلاء الجرحى والقتلى وكل من أدى دوره، سيستقبلهم ويستقبلونه، ودون تقديم نفسه إليهم، في النهاية تستقبلكم الشمس والذباب والضجيج والغبار، وفي الليل تسامرون البعوض والوحدة، وتشهدون نساء الليل والسكارى، وتحاولون في عجز دفع كلاب السكك الضالة وهي تبول على كلمات مكتوبة في صفحات الكتب المدرسية القديمة.. سيطلقون عليها الرصاص أو يقبضون عليها ويلقونها في السجن وهي متلبسة بجريمتها وحيثيات الحكم أنها تعض وتبول وتتغوط وتعتدي وما من جريمة إلا وقد

فعلتها.. ولكن المشكلة أن هناك آلافاً مؤلفة من الكلاب مختلفة الحجم واللون والوظيفة، هل من الممكن توفير الأموال اللازمة للقبض عليها.. هل هناك سجون تستوعبها؟! هل سيرضى مجلس الأمن بذلك؟! وما موقف الدول الكبرى؟! ألن تقول أن ذلك اعتداء على الكلاب التي تخدم بكل صدق وأمانة..

نصف ساعة بعد منتصف ليل الوحدة والقاهرة.. المحال أغلقت.. لسعة برد أصابته وهو يسير ويده في جيبه، وفي اليد الأخرى سيجارة، والدخان الأزرق يتصاعد إلى أعلى، ويختلط مع البخار ثم يذوب في الضباب، ولا شيء يبدو له كمفاجأة.. بدأت أطرافه تتثاقل من شدة البرد، وراح يمد خطاه حتى يستعيد النشاط والدفء.

فتح عينيه فبدا له الأسفلت الأسود شديد اللمعان، حيث تصب الأضواء ضوءها، كان لامعا ومصقولا، يتشمم الأحداث كقط جائع، ولكن الفريسة بحكم قانون التطور والتحايل واختراع الوسائل وتغاير الأنظمة واستحداث جينات جديدة صارت أذكى من الصياد..

من معطف مظلم بدأ يلحظه.. كان يسلك الطريق المؤدي إلى قلب الميدان، ثم تخطى السور الحديدي المنخفض واتخذ طريقه إلى القاعدة الحجرية الضخمة، ووقف خلف ظهر الجسد المنتصب، باعد بين ساقيه، وبعدها رأى خيطا متصلا من الماء يسيل إلى أسفل، ثم يصطدم بالقاعدة الحجرية الصلبة فتتناثر القطرات، كان رغم بعده عنها يشم رائحتها المميزة، وعندما انتهى من إفراغ مثانته شعر بارتياح ورجع بهدوء إلى مكانه داخل كشك

المراقبة، وراح يواصل عمله المحترم في ثبات ويقظة، وبدا له أن المغامرة قد انتهت، وأن عليه أن يتابع السير..

كان يعرف صاحب النصب، ويعرف ما هو مدون، وكان العمدة في قريته ثريا، صاحب خمسين فدان وآلة ري، ومواشي كثيرة وبستان نخل، وكان له زوجة في المدينة يسافر إليها، وكان بعض الفلاحين الخبثاء يقولون أن له عشيقة، وأنه يذهب لممارسة الدعارة والفجور، وأنه يتعمد ذلك حتى لا نراه في صلاة الجمعة، فيما عدا مرة واحدة لم يسافر فيها لأنه كان مريضا، وقيل أن زوجته واتتها الجرأة فقامت عليه وهو نائم ودقت أصابع يده اليسرى.. وقيل أنه سيفكر في فرض ضريبة بمناسبة ظهور القمر وهطول المطر، هل يحب المغامرة أو ينتظر موعدا مع الجنون.

الرجل الدى شاهده منذ قليل كان يبدو هادئا ولا يظهر على وجهه أي خجل أو استنكار أو استقباح مما فعل، كان يبدو مستمتعا وهو يدخن سيجارته ويلصق على أذنه هاتف صغير وصوت أغنية مشوشة وموسيقى رديئة وصوتا أردأ..

كم من الكلاب تبول كل يوم؟! سأل نفسه وهو يمرق من شارع إلى شارع بحيث فقد السيطرة على خطواته.. إلى متى يمكن أن نستمر على هذا الحال؟ وعندما وصل إلى البيت كانت التواشيح التي تسبق الآذان قد وصلت إلى نهايتها.. خلع ملابسه وتمدد في الفراش عاريا، يتأكد هذه المرة وهو ينظر في المرآة المواجهة له أنه عار تماما.. نعم.. وعلى يقين تام من عراه..

استيقظ في الثالثة عصرا.. فتح باب الشقة ووجد أن القمامة قد اختفت، تابع النظر إلى صفحة الحوادث، القبض على زعيمة شبكة للرقيق الأبيض،

هروب لص البنوك إلى الخارج للمرة الرابعة، خبر عن المرأة الحديدية.. كيف يستطيع هؤلاء الهروب؟! فتى يهشم رأس أمه العجوز من أجل الحصول على خمسين جنيها ثمنا للمخدرات، انتحار مواطن بسبب عدم قدرته على تلبية متطلبات الحياة.

الرياضة والفن.. تمتم في هوس.. وأي فائدة ستعود علينا! وراح يتحرك هنا وهناك.

أحكم إغلاق النوافذ.. مر على صنابير المياه ليتأكد.. أقفل أنبوبة البوتاجاز.. فصل قابس الثلاجة.. تناول حقيبة وراح يضع فيها بعض الملابس.. مَشّط شعره.. ارتدى ملابسه، ثم أغلق الباب ونزل على الدرج.

سمع صوت جيرانه يأتيه من أسفل :

- في موعدك تماما.

قال مندهشا :

- خيرا.

- لدينا لك رسالتين.. انتظر سأحضرهما لك.. تفضل ادخل.

سألته زوجة جاره :

- هل أنت مسافر يا بني.

أجابها :

- نعم.. يومين أو ثلاثة، سأشتاق إليكم.

بامتنان قالت :

- وأنت أيضا، أنت أصبحت كأحد أولادنا.

وهزت المرأة رأسها وزمت شفتيها واستطردت قائلة :

- أولادنا كأنهم نسونا، مرّ عامين على آخر زيارة لهم، حتى هدى التي تعيش في الإسكندرية لم نعد نراها.

حاول تطييب خاطرها :

- ربما مشاغل الحياة، ولكنهم أولادك، ويحبونكم جدا.

وجاء الرجل من الداخل في خطوات بطيئة وهو يقول :

- ها هما تفضل.

أهو السن أم تلك طبيعة الأمور؟! منذ أن جاء إلى هذا البيت وتعرف عليهما، صارت العلاقة بينهما كعلاقة الأقارب، كان يدخل المطبخ مع السيدة وهي تصنع الشاي أو تعد الطعام، وحتى كان يذهب معها إلى السوق ليشتري لها ما تشاء، وكان يخرج معهما للتنزه، وفي مرة طلب الرجل منه أن يصحبه إلى السينما، كان يحلو له ممارسة لعبة الطاولة معه، وكان العجوز شديد المهارة، دوما ما يلحق به الهزيمة، ويستمتع الرجل بحكاية أيامه الماضية، وحبه لزميلته في العمل، وكيف أن ظرفا ما منعه من الزواج بها، ثم غرامه بزوجته، كان يحكي له كم كان مغرما بالنساء، وكانت زوجته أحيانا تسمع فتجئ من المطبخ لتضرب برفق على منكبه، وتقول له ألا تتذكر كيف كنت تنتظرني حتى أخرج معك.. كان الوقت يمر سريعا وهو يحكي معه عن الأحوال والأخبار وعمله في الصحافة وقصصه التي بدأ ينشرها.. وكانت السيدة رغم كبر سنها ما زالت ماهرة في صنع الحلوى، وكان طعامها أشهى حتى من أمه، وكان هو يجلب معه الفاكهة ويعمل حسابهما في كل شيء.

سأله العجوز :

- هل أنت مسافر؟

أومأ برأسه بالإيجاب..

سأله باهتمام :

- هل ستتأخر؟

رد سريعا :

- لا.. يومين أو ثلاثة.

قال العجوز وهو يفتح له ذراعيه :

- لا تتأخر، الجو بارد فحافظ على نفسك .

دنا من السيدة وقبلها على جبينها قائلا :

- أراكم على خير.

غمرته ابتسامة طيبة، ثم تحرك خارجا من الباب إلى أسفل..

* * *

مجرد تغيير بسيط وسيعود إلى القاهرة، فأين سيذهب منها، وأين ستذهب منه وكأنها قد أصبحت سجنه الأبدي، لا يستطيع أن يهرب منها ولا هي تستطيع أن تتخلى عنه .

صوت زهرة التي تسكن في الطابق الأول من هذا البيت المكون من ثلاثة طوابق؟ لم يشأ ان يطرق الباب، أبوها رجل فظّ، والعلاقة بينهما ليست جيدة من دون سبب.

وهكذا خرج من البيت.. مسافرا إلى مسقط رأسه..

* * *

المحطة ..

أجواء حافلة بالمتناقضات.. رصيفها المثقل بمن ينتظرون في زخم من الغضب العاجز عن إبداء التذمر، الأكشاك الخشبية، دورات المياه العفنة التي ضاقت بما فيها ومن فيها فراحت تبحث عن منفذ لطرد الروائح الكريهة، باعة المياه الغازية والأطعمة والفول والحمص واللب والترمس والساعات الرخيصة وكروت الشحن وملابس الأطفال المستعملة.. يهرولون جميعهم إثر القطارات التي يتنبؤون بحركتها، حجرة ناظر المحطة وجوارها شرطة المحطة.

قطار الدرجة الثالثة العادية، صافرة ناظر المحطة تعلن عن قيام القطار رقم كذا المتجه إلى كذا، تدور العجلات وينفث دخانه الأسود ورويدا رويدا تتزايد السرعة.. العربة من الداخل –يا رب السموات- كعلبة السردين، والمقاعد مشغولة ولكن ليست هذه هي المشكلة، بل طرق العربات والأرفف كلها مسكونة بالحقائب والأجولة والجنود العائدين إلى ذويهم.

الجميع بعد لحظات سيغط في نوم عميق، أكوام من اللحم ملقاة عبر الممرات وبين فراغات المقاعد، وحتى دورات المياه رغم الروائح الكريهة.. أين اللذة في الحياة إذن؟ أين الحياة أصلا؟

* * *

في بداية الربيع الماضي استقل وميريت القطار الفرنساوي المتجه إلى الأقصر لزيارة الأثار، وفي طريق العودة سيمران على معبد أبيدوس، ثم يستعدان للمرور بدير العذراء والعرابة المدفونة.

كانت الشمس ساطعة، دافئة وناعمة، وكانت رحلة ممتعة.. القطار مكيف، النوافذ عليها ستائر، لا باعة ولا طرق مشغولة ، وكانت ميريت ترتدي ملابس خفيفة، بلوزة رقيقة تظهر من خلالها حمالة الصدر، وسروال ضيق يبرز ملامح جسدها، كانت مأخوذة بما ترى، يملأ وجهها دهشة عجيبة.

كيف تم بناء معجزات كتلك في هذه العصور القديمة؟! من أين العلم والمعدات؟! وكان يزهو بذلك ويقول.. أجدادي.

ابتاعت ميريت برديات وتذكارات وقلائد وجعارين ومزهريات ومشاطات شعر ودمى على صورة العجل أبيس، وسألته قائلة :

- في تقديرك ولادة الفرعون وموته وتتويجه كم يتكلف؟

وأجابها في عفوية :

- ربما الكثير، لا أدري على وجه التحديد.

ماذا كانت تعني؟ مجرد المعرفة، أم وراء السؤال ما وراءه! وأردفت :

- الأهرامات والمعابد وقناة السويس والسد العالي، قرأت أن آلافا من البشر فقدوا حياتهم جوعا وعطشا، أو قسوة من جلاديهم، أليس ذلك ثمنا باهظا؟

ورد متجاوزا ما تُكِنّه أسئلتها من حقيقة :

- الأشياء العظيمة تصبح إعجازا بشريا غير قابل للتكرار..

إنها الحضارة.. ثم إن هناك ثمن لكل شيء..

وقالت :

- الحضارة أم العظمة؟

ومرّت ميريت أمامه تحت قرص الشمس الحارقة كفيض النور، وراحت تلتقط الصور هنا وهناك.

من الذي يضحي؟ ومن الذي يحصل على اللقطات التي تنشر في الصحف والمجلات والبرامج الإخبارية؟

* * *

داخل قطار ما..

في مشهد خارج السياق.

مصابيح القطار بعضها مكسور، وبعضها تالف، والباقي يفرش ضوء شاحبا كضوء ثقاب في فلاة.. ما من أحد مستيقظ، نام الجميع.. وبدت الحقول الخضراء نهارا كُتلا سوداء مترامية المدى، وأعمدة الهاتف بدورها تتقهقر للوراء بصورة فائقة..

لم يجد تذكرة بالدرجة الممتازة؛ فغادر المحطة واتجه إلى موقف الحافلات، استقل إحدى سيارات الميكروباص، وجلس في المقعد الأمامي، لا يحب النوم خلال السفر.

كان المطر قد بدأ يتساقط، حبيبات صغيرة على الإفريز المجاور ومقدمة السيارة.

خرج ساعتها من البيت حافي القدمين، وعلى جسده الصغير جلباب أزرق خفيف، والفرحة تملأ وجهه بالسعادة، تلفه الجنة برائحتها، وكان وقتها يستطيع الركض إلى بعيد ، بعيد جداً وبدون توقف، الأرض من تحته لم تعد صلبة ، صارت ناعمة وطرية كأجساد الفتيات في بداية الزواج..

المطر يرتطم بكل شيء، أوراق الشجر وجدران البيوت، وأعشاش العصافير المخبوءة، وجحور الثعابين والفئران، وكان الناس يهربون بحيواناتهم إلى المنازل والأطفال يتجمعون، كانت تحدوهم الآمال الكبار بقدوم المطر، وراحوا يتقافزون ويصيحون، ينزلقون على الطين الرطب ذو الملمس الناعم، وكان المطر يقطر من شعر البنات.. استسلموا جميعا لصوت المطر ورائحته،

وبدأ المطر يغسل وسخ الملابس والأجساد، وشعر الفتيات يشكل خُصلا رفيعة ومتعرجة وغير منتظمة.. ويبدأ أحدهم بفكرة أخرى، يجمعون الطين، كتل كبيرة ضخمة، ومن ثم يشكلون حيوانات وطيور وأسماك، رجل وامرأة، ثم ينظرون إلى ما صنعوا، وبعدها يقذفون بعضهم بعضا بالطين، وبالأشكال التي صنعوها.. ثم تُشكّل أصواتهم أغنية "يا مطرة رُخّي رُخّي"..

رذاذ المطر يتواصل، بارد يهبط من قلب السماء البعيدة الحبلى بالغيوم الكثيفة، التي خبأت وراءها النجوم الصغيرة، توسل الجد بالحفيد الجميل فهطل المطر غزيرا على أرض الجزيرة الجدباء.

جلسا في مكان منعزل على النيل، الشمس تميل للغروب، والنيل يبدو ممدودا كجسد ميت، هادئ جدا وهامد، والقوارب تسير هي الأخرى ببطء ورتابة، حتى بدت وكأنها واقفة.

يتسلل صوت عبد الحليم المسكون بالحزن والفقد، حبيبي مهما طال الشوق.. وروح واجمة، يكسو وجهها الحزن، وفي عينيها تتصارع الأسئلة.. دون أدنى أمل في تلقي إجابات، وجهها قمر يتخذ طريقا غير مداره إلى سحابة ضخمة، كأنه يريد أن ينفلت من مداره.

سحبت يديها من بين يديه، كانت باردة، وفجأة امتلأت عيناها بالدموع، كانت تبدو ضعيفة وعاجزة عن مقاومة أي شيء.. بدت كعصفور وحيد يطارده ألف مخلب.

حاول أن ينتزع منها كلمة، ويلاطفها، وينأى بها عن البكاء.. ولكنها وجدت نفسها تلقي برأسها على كتفه، وتندفع في البكاء..

راح يربت على شعرها بيده.. قالت :

- ربما تكون آخر مرة أراك فيها وتراني، ربما لن تجدني مرة أخرى.
قال مداعبًا :
- وأين ستهربين مني؟
- ربما لا أدري الآن، ولكنه سيكون غيابا طويلا.
لم تفصح عن شيء، ولم يعرف منها شيء رغم محاولاته.
مدت يدها إلى حقيبتها الجلدية السوداء وأخرجت منها شيئا قدمته إليه قائلة :
- إنه نصف روحي، احتفظ به.

* * *

شعر بوخزة برد، وكأنه كان نائما منذ ركب السيارة، كل الركاب في الحقيقة كانوا نائمين، والمطر مازال يهطل من السماء البعيدة.. زخات شديدة متتالية.
لاحت له من بعيد أبنية الجامعة والمحافظة والبلدة..
تركته السيارة التي استقلها على أول الطريق المؤدي إلى بلدته الصغيرة الواقعة على مشارف الجبل الشرقي من الناحية الغربية.
وعادت السيارة على نفس الطريق.
جذب نفسا عميقا، وكان ظلام الليل مازال في الأفق، وجو الليل رطبا ممزوجا بعبق الأرض وعبير المزروعات، لديه فكرة كاملة عن محاصيل ومزروعات البلدة وأوقات الحصاد والزراعة ومعالجة الأرض.
الناس، والأفكار والعادات الموروثة، والتغيير.. مهمة الأجيال، ليس من السهل أن يتغير الناس ..

لَسع البرد يسكن جسده، استخلص من حقيبته كوفية صوفية ولفها حول رأسه ورقبته.
أشعل سيجارة واستأنف السير، تستقبله البلدة الصغيرة.. وشيش الليل يحمل هواء شتويا باردا، دافئ نهارا بارد ليلا.
معتدل الحرارة وبارد بعض الشيء شتاءً دافئ صيفا.. نشرة أخبار قديمة.
هي العادة تجلب معها أحاسيس قديمة مختبئة بمكان ما بذكرى تتكشف حتى يجئ الوقت المناسب لها.
قمر تنزاح عنه سحابة ركامية فيصبح بعدها جليا. وهو وحيد يخطو نحوها، ما من أحد يستقبله، ما من أحد يعلم بوصوله، ناموا في وقت مبكر، ولن يصحو أحد لمجرد استقبال زائر.
وعود وزيارات لمسؤولين حكوميين، وعام الرخاء والكساد وانخفاض الأسعار ونبح الكلاب ونقيق الضفادع ودوامات الهاموش تصحبه للبيت.. هل تغير شيء
دفع الباب ودلف للداخل في قلب الظلام الذي يملأ البيت الخالي من كل شيء، أشعل عود ثقاب ليبحث عن مفاتيح الكهرباء، في آخر زيارة له استبدل المصابيح التالفة، مصباح واحد صالح والباقي تلف بفعل الأيام.. بحث هنا وهناك عن مصابيح أخرى، مصابيح ما قبل الكهرباء ، مازال هناك مصباح ممتلأ بالجاز..
الأب والأم، الحضور الطاغي رغم الرحيل، مازال مفجعا وقاسيا، مازال حتى الآن يندهش لأنهما غابا واختفيا هكذا ببساطة من حياته..

رائحة البحر وطعم الأرض وجودكما، شكل الوهج واتساع المدى.. بذل وقتا لك يعد مكاناً يقضي فيه ليلته بعد رحلة السفر، حصير وكليم ووسادة ومفرش.

أخته الوحيدة تزوجت وسكنت في قرية بعيدة، كانت تأتي من وقت لآخر تنظف المكان ثم تباعدت الزيارات حتى تلاشت، زوجها كان يلح عليها أن تعرض على أخيها أن يبيع له البيت، ولكنه رفض، أعطى أخته نصيبها وهكذا أصبح البيت له منفردا.

يتذكر كلام أبيه، العقارب دائما تسكن الأماكن القديمة.. ضرب بيده لينفض المفرش والوسادة فتصاعد الغبار في ظل الضوء الخافت للمصباح الغازي.

* * *

من ورائها بدا رجلا ضخما شديد الضخامة، كأنه أسطوانة كبيرة، عاري الرأس بين أصبعيه سيجارة ولحيته صغيرة حمراء، تبدو وكأنها مستعارة، وبجواره امرأة بدينة ورأسها معصوب بشال أخضر مطرز وفستان فضفاض يبرز رغم ذلك اكتناز جسدها. وهتف الرجل:

- لا تبتعدي.

وتعلقت البنت بذراعه قائلة :

- أبي..

قاطعها في حدة :

- قلت لا تبتعدي هذا يكفي.

وانحسر الماء من حوله فاستكان في حفرة صغيرة قاعها أسود رملي لا يمنح فرصة صغيرة للدوران، ولكنه يعطي مجالا واسعا للسقوط في هوة سحيقة.. ألصق ظهره بالحائط ومد ساقيه وانتفض ذعرا عندما عبرت أمامه في سرعة خاطفة قطة ثم لحق بها آخر.. ابتسم وقد تذكر موسم تزاوج القطط ، ينادي كل واحد صاحبته وتناديه.. مريم.. داود.. كانت أمه تقول له ذلك عندما كان يسألها.

مريم كانت حضور بدايات الرغبة وطغيان الحاجة.

شعر بجفاف حلقه، ازدرد ريقه فشعر وكأن لسانه يدخل جوفه وتطحنه معدته.. تجرع ما تبقى في زجاجة المياه المعدنية، ولم يشعر أنه ارتوى، زاد ظمأه ولوعته وحلت به رغبة عارمة في أن ينزل إلى النهر ويسبح إلى ما لا نهاية، جف جسده، اكتمل جنون رغبته كجوع النار إلى الهشيم.

روح يا عشقي ووجدي وهزيمتي.. يمضغها كقطعة خبز مغموسة بريقها العذب وببطء يجعلها تنزلق إلى أسفل في الغور المظلم .. درجة درجة.. لطعمها ملوحة الهجران وحلاوة الوصل والتوحد، عذاب التلاقي الأبدي وجحيم الانفصال المضني وقت تصاعد رغبة جنونية..

جافاه النوم فخرج عبر دروب البلدة الحلزونية وخطواته المجهدة قلقة..

هل نسيت أنها كذلك ومنذ وقت بعيد؟ لمح إناءً فخاريا يرتكن على الحائط وقائم على دعائم من الحديد، غرف بيده وأفرغ في جوفه حتى شعر أن بطنه صارت كالقربة، تنهد في ارتياح وهو يشق الهدوء البغيض والذى لم يقطعه سوى نبح الكلاب ونقيق الضفادع وخشخشة الريح وهي تعبث بالأشياء القديمة الجافة.

وصوب النهر الذي يمر بالبلدة انحدر عبر القنطرة الممدودة على النهر ثم تقدم على الطريق التراب صوب البيت الذي تقطنه مريم..

غادر البيت والشمس تميل للغروب، كان البدر يلوح في السماء مبهراً، ورغم انقطاع الكهرباء بدا الجو مضيئا ورائعاً ، كانت مريم قد أخبرته أنها استأذنت والدها في أن يمر عليها كي يذاكر معها بعض المسائل الرياضية ..

كان يسير بخطى وئيدة ، حذرة ومتوجسة ، مفارق طرق وهمية كطرق النحل.

كان الوقت صيفاً ، والشمس مازالت تراوح مكانها ، والأرض تكتسي بالخضرة، والبهجة تملأ روحه في انتظار لحظة قد تكون غير متوقعة. هل كان يحبها . لم يسأل نفسه هذا السؤال ولو مرة ، وهي أيضاً لم تسأله . لكنه كان يشعر بالراحة معها . يحب لقاءها والجلوس معها . هل كان يخطط ويحلم بالزواج منها ؟ ربما نعم ، وربما لا..

كان البيت من الخارج مختلفاًعن غيره من بيوت البلدة ، يتكون من طابقين ويحيط به من الخارج سور ومن داخله نباتات زهرية وشجيرات مقصوصة بعناية .

وقف على جانب الطريق ثم انحدر إلى أسفله .

كان الرجل الضخم ذو اللحية الحمراء المستعارة يخرج من البيت وبصحبته زوجته السيدة أم مريم ، هل شعر بالسعادة لذلك ؟

كان يلعب معها في البيت وتلعب معه ، كان ثمة علاقة بين الأسرتين ، متعاونين إلى حد ما رغم اختلاف العقيدة ، ولكنهما كان يجلسان معا ، ويتزاوران ويتناولان الطعام معاً ، وكانت السيدة أم مريم تذهب إلى أمه ،

وأمه هي الأخرى تذهب إليها ، وكان يمضي مع مريم إلى حديقة الموالح ، يلعبان في ظل شجر الليمون والبرتقال ، تنعش روحهما رائحة زهره، وتبعث في نفسيهما حيوية وسعادة بالحياة .

وكان وجودهما معاً لا يخلو من عبث وصبيانية ، وأحياناً يتخاصمان ، ثم يعودا ليتصالحا دون أن يتدخل أحد بينهما.

هل حقاً كبر؟ فضّ شرنقة الطفولة وخرج منها وعلى شفته العليا شارب وفي صدغيه نبت الشعر، وفي صوته بدايات رجولة.

نما جسده وصارت له هيئة رجل، ولم تعد الجلاليب الصغيرة تستوعب جسده، ومضت السيارة أمامه مثيرة زوبعة من التراب.

أرضية المنزل مكسوة بالبلاط وعليها بعض الأبسطة التي لم يرها في بيت من بيوت البلدة، والحوائط مدهونة بالزيت، وعلى النوافذ ستائر مزركشة مضمومة إلى الجوانب.

هل هناك أحد غيرها في البيت؟ لم يكن يعرف من بالداخل معها، ولكن المؤكد أنها في مكان ما بالبيت.. أين هي الآن؟ وراح ينادي من أسفل وبصوت منخفض، وراح يتحسس وقع أقدامه.

- مريم.. مريم..

يشعر رغم ذلك بالرهبة، ولكنه يخطو صوب السلم الذي يقود إلى الطابق الثاني حيث حجرة مريم، وكلما صعد زاد ارتباكه وتوتر وخفق قلبه، لكن الرغبة في رؤيتها كانت تسيطر عليه.

هل يرجع من حيث أتى؟

مخطوف بوجودها، شيء ما في الأعلى يناديه، حجرتها على يسار الدرج بخطوتين، هل يمد يده ويطرق الباب؟ هل يفتح ويدخل فتناديه أهلا، وراحت ضربات قلبه تعلو، وراح الخوف في صدره يحتدم، أمن العقل أن يفعل ذلك؟ وماذا لو عاد أبوها فجأة ورآه؟ كيف سيتصرف ساعتها؟ وكان الباب مواربا ينكشف لعينيه جزء من دولاب الملابس ومن خلاله تظهر حافة السرير تحت النافذة، يدنو أكثر، وبرفق شديد يزيح الباب لكى ينفرج أكثر، ودفع رأسه وهو يزدرد ريقا جافا، وعندما انكشفت كل المرآة خُطف بصره.

كانت مريم عارية النصف العلوي وشعرها مبعثر وبشكل فوضوي على وجهها وظهرها، استلقى على ظهره فبدت الأشجار منتصبة شديدة الخضرة، وثمارها ناضجة.. والأرض تحت جسده ليّنة وكأنها تحتضنه، والهواء يختلط بأريج البرتقال ووهج حبات الكرز الذي سمع وقرأ عنه ، ومريم أمامه وفي صدرها الناصع البياض مشمشتان رائعتان، لا لم تكونا كذلك، صارتا أكبر من ذلك وفي قمتهما وهج خاطف للعين، وهمست ارفعني لأعلى..

راح يركض كالمجنون، يقفز كضفدع مجنون تطارده مناقير مالك الحزين، سقط على الدرج ثم نهض مسرعا يلوذ بالشارع من مصيبته وخطيئته وجريمته، تناهى الخبط إلى سمعها، فنادت من؟ ضمت الثياب إلى جسدها، وراحت تنظر من الباب ثم النافذة المطلة على الطريق ، فرأته يجري كالمجنون، فنادت عليه .. بصوتها بحة لذيذة، وشامة داكنة صغيرة عند الزاوية اليسرى على مشارف شفتها السفلى الممتلئة، وردية وحلوة.

قطع الطريق جريا، وسقط خلال هربه مرات ومرات، كل شيء في مخيلته كان يبدو مستديرا ومتوهجا، وانقلب جسده حريقا..

قذف بنفسه في النهر، وراح يضرب بذراعيه وقدميه سابحا حتى بلغ الجانب الآخر من النهر، دفع الباب ودخل، كان يريد أن يهرب إلى مكان لا يراه فيه أحد حتى مريم. وأخيرا دخل في الفراش البائس، تمدد وعقد يديه خلف رأسه الغاض بالأفكار، وراح النوم يزحف ببطء إلى عينيه.

كان ضوء النهار يتسلل عبر العراء المكشوف من الداخل، لكنه كان قد راح في النوم.. من الفضاء المكشوف للبيت فرشت شمس الشتاء ضوئها، أما هو فقد انتفض من نومه على قرع الباب، من لديه فكرة عن وجوده؟! وعندما فتح الباب وجد نفسه في حضن صديقه، تربعا على الأرض، وراحا يدخنان السجائر، وراحت الضحكات تعلو في أرجاء البيت الذي كان قد خلا من الحياة.

ضرب بيده على فخذه قائلا :

لماذا دخلت البلد كاللص ؟ لماذا لم تخبرني أنك ستأتي؟ -

قال في هدوء :

- أردت أن تكون مفاجأة.

- طبعا أنت هكذا، مضى وقت طويل منذ آخر زيارة، صار عشقك هناك.

رد نافيا :

- ليس للعشق أوطان..

كانا زميلا دراسة، وجارين، ومن ثم صديقين، يعرف كل منهما صاحبه كما يعرف أصابع يديه.

- تبدو على غير عادتك.. ما بك؟

- لا شيء.

- وما هي أخبارك هناك ؟
- يجرون معي تحقيقا.
- بخصوص ماذا؟
- تحقيقات عن الفساد وتحريض على الحكومة..
ثم التفت إليه وقال :
- وأنت؟
- كما تعرف مدرس في الصباح وفلاح بعد الظهر.
ونهض صديقه وهو يقول :
- هيا قم لنخرج وسأرسل زوجتي تنظف هذا البيت وترتبه.
قال في لهجة شاكرة :
- ليس هناك من داع لذلك، إنهما يومان على الأكثر.
- هيا يا رجل..
ومضيا معا إلى الخارج.

في طريقهما مرا على المدرسة القديمة، ومطعم صغير، ومقهى كانا يجلسان عليه مع معظم شباب القرية، وكانت المناقشات يدور معظمها في الفن والرياضة والقليل جدا في السياسة، ولم تكن الغالبية تهوى الكلام في السياسة أو حتى ترتاح لها.. حتى صديقه جمال أبو صبرة لم يكن يحب الشعر ولا الأدب ولا الكلام في السياسة، ولكنه كان يسمع لصديقه عندما يتحدث أو يحكي له عن رواية أو قصيدة حفظها أو كتبها.

قال له :
- أنا أشتري صحيفتك من أجلك، من أجل أن أقرأ ما تكتبه، ولكن يا

صديقي لا أهتم كثيرا بما يحدث في البلاد لا أمس ولا اليوم ولا حتى غدا.. أنا أعيش حياتي، بيتي وأولادي، أعمل في الحكومة ولا أريد عداء معها.

- نعم أنت كذلك.

ثم سأله عن أخبار البلدة.. وأجابه :

- ماذا في ظنك حدث أو سيحدث.. يا صديق التطور هنا بطئ جدا كسلحفاة.. يزرعون ويحصدون ويتزوجون ويتكاثرون تلك هي الحكاية. المهم ماذا ستفعل بعد عودتك ؟

قال في لا مبالاة :

- أراسل صحفا عربية وأجنبية، وربما أفكر في مشروع آخر.

- ومريم؟

ربما لم يكن سؤاله عن مريم مفاجأة له ، فقال في نبرة هادئة :

- تعيش.

- وبعد؟

هنا نظر له في دهشة وقال :

- وبعد ماذا!

- هل تراها؟

- كثيرا فأنت تعلم أنها صديقتي .

- طبعا.

- وكأنه اندهش من كلمته فقال :

- ماذا تعني؟

قال متلعثما :
- أعني أنكما كنتما متفاهمين معا، كانت مريم أجمل بنات البلدة.
- كنا أصحاب.
- والآن؟
- أصحاب أيضا رغم زواجها.
- هل أصبح عندها أولاد؟
رد باقتضاب :
- لا.
- هل هناك أسباب؟
- لا أدري ولم أسألها حتى.
عند ذلك الحد من النقاش قال الصديق :
- هيا بنا، فقد حان وقت الطعام.
كانت زوجته قد أعدت وليمة، وكان الأولاد في الانتظار على الباب.
وحينما وصل عانقهما، قال وقد بدت على وجهه السعادة :
- أولادي أسماء وحازم، وهذ عمكما الجميل عارف برهان الدولة.. هيا رحبا به.
في آخر مرة رآهما كانا صغيرين لا يميزان.
أخذهما عارف إلى صدره وقبّلهما، وكان صديقه ينظر ويتأمل، وكأنه يقول في نفسه عجباً لك وماذا يؤخرك عن الزواج يا صديقي .
جلسا بمفردهما على الطعام وعندما تناول أول لقمة قال :
- زوجتك رائعة في الطهي، ثم أردف، ما أخبار المدرسة والتلاميذ.

ورد في تأفف :

- أصبحت مهنة لا تطاق، كثرة المشاكل، وغباء المناهج .

- هل المشكلة في التلاميذ؟

- ربما لا.

- في من إذا؟

- لست أدري على وجه التحديد، ولكن هناك حتما مشكلة، ومشكلة ضخمة.

- ربما في الدولة أو فينا.

- لا أعرف، هل تتذكر عندما كنا تلاميذا، كنا أمهر، نذاكر بمفردنا، لا كتب خارجية ولا دروس خصوصية.

- ربما لا تناسب عقول الأجيال الحديثة.

- يقال أن الحكومة ستقدم قانونا جيدا بخصوص النظام التعليمي.

- ماذا ستفعلون؟

- لا أدرى.. ربما يشنون حرباً علينا.

- القوانين والتشريعات لابد أن تكون في صالح الناس.

- هذا في الدول التي تدار بطريقة صحيحة.. نحن قطعان من الماشية.

وأراد صديقه أن يخفف من حدة المناقشة التي ذهبت في اتجاه آخر فقال :

- هل ما زلت تذكر؟

- ماذا؟

- الصور التي ناولتك إياها ونحن في الصف الثالث الإعدادي..

- كانت في حصة الرسم.

- إذا فما زلت تذكرها.

- وكيف لا وقد نلت بسببها علقة ساخنة.. أما أنت فقد كانت مريم بجوارك دائما.

سكت ولم يرد فقال جمال مردفا :

- لابد أنك قبلتها، أو حضنتها، كانت رهيبة.

عند ذلك قال عارف :

- اسكت الآن .

* * *

صديقي العزيز عارف..

تحياتي الطيبة وبعد ..

ربما أعود إلى القاهرة، مللت العمل هنا، أفكر في إصدار صحيفة مستقلة نكون فيها معا، وهناك شيء آخر ربما لن تصدقه أبدا، ولا أستطيع أن أخبرك به الآن، لست متأكدا بعد من حقيقة ما رأيت، أنا أيضا لا أصدق ما رأت عيناي، عندما أعود سأخبرك بكل شيء.

صديقك المخلص

* * *

لم يكن فتحي أبو العلا صحفيا، كان من أصحاب التفكير المادي البحت.. قابله أول مرة على باب الجامعة، اصطدم به فكانت بداية التعارف، كان يكبره بعامين، ولكنهما توافقا سريعا، وكانت أفكارهما رغم التناقض تبدو واضحة لكل منهما.

وكان عارف يحكي له، وفتحي هو الآخر يسمع ويشير ويقترح.. كان ماهرا

بالعمليات الحسابية والربح والخسارة، حتى أنه كان يعقد بعض الصفقات الصغيرة للطلاب والأساتذة على السواء.

بعد تخرجه عمل لعامين في شركة خاصة ثم فكر في السفر إلى دول النفط الغنية، كان من ضمن اعتقاده، أن العمل الخاص هو الأفضل بالنسبة له، وكما كان يقول لصديقه عارف :

- لا أحب العمل عند الآخرين.

وكانت الرسالة الثانية من ميريت، ولا يدرى لِمَ لمْ تكتب له على الصفحة الخاصة ببريده الإلكتروني.

كانت الرسالة تتحدث أنها قدمت ملفا عنه لصحيفة كبرى، وأنها تلقت وعدا من دار نشر لعرض رواية له إن تخطت قرار اللجنة الخاصة بالدار. هل كانت أخباراً سارّة؟ ذلك ما بدا، وأن كان ما جاء في رسالة صديقه بخصوص ما وجده فتحي ولم يخبره عنه يدعو للقلق والحيرة، فما هذا الشيء الذى وجده هناك ولم يخبره عنه؟ صار العالم كبيرا برغم ما يقال على أنه قرية صغيرة، ذرات صغيرة متناثرة لا تكف عن البحث عن مكان آمن تلتحم فيه من جديد، آمال عظيمة ورغائب شتى تراوده، وما يدور حوله محبط ، الحرب في العراق، والفقر هنا، المستقبل يبدو مخيفا، ولولا الأمل لانتحر الفقراء يأسا.

قِطّ عجوز تعب من الركض والوثب، وفقد القدرة على القنص، تلفظه الهررة ويتكالب على قتله الكلاب وحتى الفئران.

راح يتجول في البيت الذي آل للوحدة والغبار والهجرة.. المندرة.. حجرة نوم أبيه وأمه.. مصطبة الضيوف.. قفص الطيور.. زريبة الماشية.. وصدى

صوتهما يرن في أذنيه، أصداء بعيدة الوقع وكأنها توا. حتى سرت بجسده رعشة واحتواه فراغ مباغت.

الحقوق والواجبات.. قاعدة بسيطة، والانتماء والولاء ليس مجانيا، والدولة ليست سيفا مسلطا، فلولاه ما قامت الدول، الحزم والقوة.. والحماقة نتاج طبيعي للطيبة، والكرم ليس محله بيت اللئام.

قطرات قليلة من مطر يبدو خجولا، والإحساس يراوده بوقعها، يخبره أنها ستزيد.

تلتئم الجروح وتسكن نفسه المضطربة بذلك الفعل السماوي الرائع، رفع وجهه للسماء، كانت كالثلج الأبيض، كتل ضبابية كثيفة، وحينما تنزاح غدا ستشرق الشمس.

عند الدرج الطوبي الذي تهدم بعضه، والذي ينتهي إلى الطابق الثاني حيث الحجرة العلوية التي من المخطط أن يتزوج فيها، وكان يوضع بها القمح مؤقتا.

بقايا الأحبة في صندوق، رفع رأسه ليرى السقف.

هل اكتشفته؟ تساءل مرارا، وهالته الإجابة، لم يجد ملاذا آمنا إلا في هذا المكان، عجز أن يوقف ضربات قلبه المتربص به ليفضحه، يعلو ويهبط كموجة شتوية زاخرة بالجنون والفوضى وقوة الريح، أنفاسه تلهج، وأعضاؤه تختلج، والعرق ينزّ من فتحات مسام الجلد الذي تتناثر عليه شعيرات قليلة، ابتلع ريقه وحاول أن يبث في نفسه الثقة والطمأنينة، وراح يفكر فيما سيكون.

المهم ألّا تخبر أباها، وأن يظل الأمر بينهما، ويعتذر لها وينتهى الأمر.. الوقت

كفيل بإصلاح الأمور.. طمأن نفسه واستكان.. كان يحملق في السقف، فجوات عجيبة يتبين وجودها لأول مرة، وضوء الشمس مازال ينساب من النافذة على نصف جسده.

سيطر على المكان هدوء تام، استرخى هو في رقدته، في أوقات ما تأتي أمه إلى هنا لتجلب ما تحتاج إليه من القمح أو قطعة ملابس ولا تمكث كثيرا، عشر دقائق أو أكثر قليلا.

انتفض جالسا، وقد تناهت إلى أذنيه وقع أقدام تصعد الدرج، ربما أمي، هل هي؟ اتكأ على مرفقيه، وانفرجت سيقانه كأنه يستعد للعقاب أو التوبيخ.. فُتح الباب وأصابته دهشة كادت تطيح بعقله.

كانت تقف شامخة، طويلة كما لم يرها من قبل، كما لو كانت نخلة، تسند يدها على الباب، وتضع يدها الأخرى في خصرها، تمدد جسدها بصورة عجيبة وفريدة، وعلى شفتيها تلوح ابتسامة تحمل الغموض والبراءة في آن واحد، وعينيها تلاقي عينيه الغارقة في الدهشة، مزيج من الملائكية والوحشية، وميض البراءة يطل من عينيها كما لو كانت تقول لابأس.

- مريم لم أتخيلكِ هكذا.

- وأنت ألم تكبر؟

- هل تحبين أن نكبر؟

قالت وكأنها تضعه في الركن البعيد :

- ماذا فعلت منذ قليل؟

بكامل حضور اللحظة الفائتة نما بداخله حضور قوي إلى جسده وتدفق عارم في وعيه وإدراكه، حكّ الثقاب، وأشعل النار.

- وحياة ربنا ما كنت أقصد.
وضحكت مريم بينما خفض وجهه خجلا، وخطت مريم نحوه بعد أن أحكمت إغلاق الباب، هتف مذعورا :
- ماذا ستفعلين؟
وضعت إصبعها على شفتيه فسكت.
تمهلت في خطوها وانحنت تمسك بذيل ثوبها وبرفق رفعته إلى أعلى ركبتيها وفخذيها حتى خاصرتها.
لم ير جمالا كهذا حتى فتيات جمال أبو صبرة التي رآها في الصور لم تكن بهذا البهاء.
ومررت رأسها من فتحة الثوب ثم ذراعيها، وأسقطته على الأرض، فأصدر صوتا ناعما.
كانت ترتدي تحته قميص وردي مشغول على الصدر وحمالات كتف رفيعة، كان كتفها شديد الاستدارة وتحت ذقنها رقبة بيضاء، نزعته عند قدميها، كان من نعومته ورقته بحجم المنديل.
قال له الأولاد في الثانوية إن أجسام البنات تختلف كثيرا عن الأولاد عند مناطق معينة، وهل تعرف لماذا؟ لأنها ممتلئة.. ولم يحرّره من قيد اللحظة إلا صوت صديقه ينادي من أسفل.
- عارف .. عارف.
قال وهو يتناول المنشفة :
- شكرا روح.

اندهشت البنت الصغيرة ونظرت إليه، هل نسي أنها ليست هي، ولكن البنت لم تقل شيئا، واكتفت بابتسامة بريئة.

وناداه صديقه قائلا :

- تعال لنشرب الشاي، وأردف قائلا في دهشة :

- ومن روح هذه؟

-روح..

يتمتم بها في الحضور والغياب، في سكرة الموت ونشوة الحياة، في قربها كل الدفء والحب وفوران الرغبة في اعتلاء المجد، حاضرته، تشبع الجوع وتروي الظمأ، مثقل الكاهل، معذب الأوقات، تسبيحته ونبضه وكيانه.

- عرفنا أنها روح.

باغته صديقه من غفلته ولكنه لم يجب.. دخلته روح من زمن بعيد حتى ما عاد يدرى أَوُلد فيها أم كان فيها من الأزل.. قالت له أمه :

- بجوار النهر أخرجتك من أحشائي..

حكى له عنها، عن أحلامها ووجودها وعذاباتها، عن برائتها وسحرها الخاص، ليست المرأة في ملامحها الخارجية ولكن في انعكاس روحها، يتحدث عنها كعاشق لن يجئ بعده عشاق، كقصة ليس بعدها قصص، كل ما سيجئ بعدها زهور صناعية داخل مزهرية رخيصة، نثر سكر محلى في حديقة نمل.

وهتف صديقة وكأنه أصيب بالخيبة :

- يا لي من مغفل، تزوجت كرجل من القرون الوسطى.

تبدأ الأشياء غريبة ثم مألوفة ثم تصبح مسلمات .

وسأله ليعرف أكثر:

- وأين هي الأن، ولماذا لم تتزوج بها؟
تنهد ولم يقل شيئا، فألحّ جمال بمزيد من الأسئلة :
- لماذا لم تتزوجا، ما المانع، ما العيب؟
قال متنهدا :
- لا أعرف عنوانها.
قال صديقه غير مصدق ما يسمع :
- معقول، عرفتها وأحببتها ولا تعرف عنوانها، أين الذكاء؟
- كما أقول لك.. اختفت وضاعت هكذا..
وسكتا معا وطال الصمت حتى قطعه الولد الصغير:
- أمي تقول هل تصنع لكما الشاي؟
وأومأ الأب أن نعم.
- عارف يا صديقي، الحزن لا يجلب إلا الحسرات، لم لا تعود إلى هنا.
ثم سكت كأنما راجع نفسه فيما قال :
- ماذا أقول أنا.. هل هذا كلام؟!
أشعل سيجارة وقال مخاطبا صديقه :
- المسألة لا تتعلق بهنا أو هناك، الأمر يتعلق بالراحة، بالأمل، لم أجد نفسي هنا، ثم ماذا لي هنا بعد أبي وأمي، هذا البيت، وقطعة الأرض الصغيرة وأنت تزرعها، وأختي ولها بيتها.
قال جمال :
- أعرفك عنيد، تتذكّر مدرس العربي عندما كان يقرأ موضوعات الإنشاء، كان يقول، عارف هو أفضل طالب في المدرسة، سيصبح ذات يوم كاتبا

كبيرا، الحقيقة أنني كنت أغار منك، ولكنى كنت أحبك جدا، كأنك أخي أو أكثر.... عارف..

- ماذا؟

- لا تتوغل كثيرا في الموضوعات الشائكة، لماذا لا تكتب في صفحات الفن أو الرياضة؟

-هل أنت عضو في الحزب؟

ونظر جمال مستهجنا تلك الفكرة وقال :

- أنا أنتمى لحزب، لا يا صديقي، الله الغني.

- أنا أيضاً لا أحب فكرة الانتماء إلى حزب معين، الأفكار المعلبة والقواعد والروتين ، ثم أين هي الأحزاب التي يمكن الانتماء إليها.. إنها مجرد مكاتب.

قال جمال معقباً :

- الحياة السياسية فاسدة تماما، كل شيء في حياتنا صار فاسدا، شعارات فقط..

- حتى التاريخ صار زائفا.

- دع الملك للمالك، منذ متى وهذا البلد يسير كما تسير البلاد الأخرى، الناس هنا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتسلون بالمسلسلات والأفلام، ويخوضون في سيرة فلان وفلان ، واطمئن الحكام أيضاً لا يخلون من الهمز واللمز.

وسأله عارف :

- ماذا تنتظر أن يصبح أولادك ؟

قال وهو يمط شفتيه :

- ومن يدري ما سيكون غدا، ولكن كما ترى الأبناء يرثون آباءهم .

- أورثتنا الشيوعية والاشتراكية الفقر والجهل والمرض والأنظمة الاقتصادية المستبدة والخطط الخمسية، ثم أنظر أين وصل بنا الحال.

قال جمال وكأن الملل أصابه من حديث السياسة :

- هل بحثت عنها ؟

- في كل مكان .

- هل انشقت الأرض وابتلعتها ؟

قال في يأس :

- لا أدري.

- ومريم هل كانت تعرف ما بينكما ؟

قال نافيا :

- لا ، ولكني أخبرتها فيما بعد غياب روح، فعرفتني بصديقتها ميريت.

انتبه جمال وقد طرق أذنيه اسم ميريت :

- ميريت !

- امرأة أمريكية .

- وماذا تفعل أنت مع الأمريكية ؟

- جاءت بهدف السياحة، لديها بعض المشاريع، هي أيضا صحفية.

- جميلة.

وأجاب فضوله باقتضاب :

- جدا.

ثم قام واقفا وهو يقول :

- هيا نخرج نتمشى مثل أيام زمان .

قال جمال :
- يبدو لي أنها ستمطر.
فسحبه من يده وهو يقول :
- لعلنا إذا نتطهر تحت زخاتها.
في العاشرة صباحاً كان في قلب الجامعة يجري موضوعاً مع الطلاب لصحيفحة الجامعة ..
المكان الذى يمنح القادمين إليه روحاً جديدة في الغد ، ويسلب الخارجين منه الطمأنينة ويلقيه في حضن الإهمال والركود والعطن، وبمرور الوقت ينسى ويقول في نفسه ياليتنى كنت أمياً . وراحت الكلمات تنساب من هنا وهناك .
- أحلم بعريس جاهز ، لا طوبة فضة ولا طوبة دهب .
- أريد وظيفة مرموقة تناسبني وتجعلني أعيش كريما.
- أتزوج وأعمل .
- أما أنا فأريد السفر إلى السعودية أو الكويت ..
- أريد أن أكون أستاذاً في الجامعة .
- أريد أن أصبح محامياً مشهوراً ..
- أما أنا فأريد أن يكون عندي مطعما للأسماك البحرية .
- لاعب كرة ..
وتنوعت الأحلام والأماني بين الوظيفة والزواج والسفر وحقوق الشعوب والوحدة الوطنية والعربية وإسرائيل العنصرية وإيران ..

كان يوما من أيام الشتاء، موصولا ببدايات الربيع ، ولاحت له من بعيد تقف في صحبة طالبات وشبان، ليس على وجهها سوى ابتسامة رقيقة، وفستانها طويل فضفاض مكشكش عند الخصر، ويدها تمسك بكتاب، وحقيبة معلقة في كتفها وعنقها يبدو طويلا رغم طوق الفستان، وعندما اقترب منها لمح سلسلة تتدلى من العنق خارج الفستان على الصدر.

قالت عندما سألها نفس السؤال :

- لا أدري، ربما يكون الوقت مبكرا على ذلك.

نظر في عينيها.. واسعتان جدا، لا أصباغ ولا زينة، شعرها مجدول في ضفيرة طويلة تنساب على ظهرها، وجهها خمري ، وذوائب السالفتين تنسدل إلى أسفل صدغيها.. تتبعثر شعيرات قليلة على أذنيها ومقدم وجهها.. يسكن وجهها هدوء وتشي ملامحها الرقيقة بغموض هائل، ابتسامة رقيقة على شفتين خلتا من الصبغة، فمها رائع، لا يكاد يبتعد إلا لينظر إلى عينيها، شفتها السفلى ممتلئة قليلا، وبخديها غمازتين سقطتا في قلبه كقطرات مطر في قلب بارد.

قالت ولكن لم يسمع، كأنه كان يصغي إلى حديثها الذى لم تقله.. منفاه، غفرانه وخطيئته، عتقه وإعتاقه.. خفق قلبه مرة واحدة كعصفور صغير يراوده حلم الطيران لأول مرة إلى حضن السماء الأزرق الصافي.. يسعى إليها الآن.

وعندما نظر إليها النظرة الأخيرة قبل أن تنصرف لمح اسمها وكليتها.. كانت الشمس تغادر ساحة الجامعة .. وانتبه على لكزة خفيفة من صديقه المصور يقول له :

- لا.. أنت لست هنا.. لو كانت أسماء هنا أو حازم لضحكا عليك.
- ماذا كنت تقول؟
- أقول إن الشرطة كانت هنا قبل أن تأتي.
- هل كانت هناك مشكلة ؟
- قبضوا على شخص يسمى عريان..
- وما مشكلته ؟
- أحد المطلوبين للأمن ..
- فعلا؟
- لا طبعا إنها إخبارية، ولكنه سيكلف بقطعة سلاح..
ثم سأله :
- أما زالت هناك جماعات دينية.
قال نافيا :
- لا، مجرد شباب يصلون في جماعات، لا توجد انتماءات سياسة ولا دينية.
- ولكن الموضوعات تكبر رويدا رويدا.
- إن الجرائم تصنع أحيانا على أعين البعض، ألم تعلم بأنهم احتجزوني ليلة بسبب بلاغ، وكتبت إقرارا على نفسي..
نظر عارف إلى بعيد، وصديقه يهم واقفا وهو يقول :
- هيا بنا نعود للبيت، يبدو أنها ستمطر بغزارة.
قال وهو يتابع النظر إلى الأفق :
- غدا سأذهب لزيارة أختي، وعلى آخر اليوم سأعود إلى القاهرة.
- هكذا سريعا، ما هذا الكلام؟

- يجب أن أعود حتى أتابع التحقيق.
- حسنا يا صديقي.. هيا بنا الآن وليكن غدا ما يكون.
تناول العشاء في بيت جمال، واحتسيا الشاي وهما يتابعان الإعلانات في انتظار فيلم جديد أعلن عنه وراح الوقت يمر والإعلانات تمر وتعاد وتتكرر، تسرب الملل إليهما، وأخيرا جاء المنتظر ولكنه فيلم قديم سخيف وممل، غمغم جمال في ضيق :
- قالوا أنهم سيعرضون فيلما جديدا.
أجابه عارف :
- قالوا، أنا أشعر بالتعب، حاول جمال أن يبقيه للنوم في بيته ولكنه رفض بإصرار.
أوصله جمال حتى عتبة البيت ثم عاد إلى بيته، أدار مؤشر الراديو وأغمض عينيه..
غبت طويلا، تعال الآن فأنا في حاجة إليك.. دنت منه، وقفت ميريت هائجة تضرب الأرض، وكانت مريم تطوقه من الخلف، وما زالت ميريت تسبّ وتلعن، وبدت صورة روح مشوشة في عينيه، أرخت مريم يديها حول عنقه، فقفزت ميريت وأمسكت بشعرها، وجذبتها بقوة فارتطمت رأس مريم في جدار زجاجي، تقدمت ميريت نحوه ويديها ملطخة بدماء مريم، وذراعاها مفتوحتان.. تقهقر للوراء، مدّت يديها، حاولت أن تُمسك به، وقع على ظهره، كانت ميريت واقفة تضحك في شكل هستيري مجنون، فمها يبدو أكبر من المعتاد، وراحت تصرخ.. كان العرق يغمر جسده تحت الغطاء، وأعيرة

نارية تطن في رأسه، أوقد المصباح، وأشعل سيجارة، وراح يتمتم بالمعوذتين والصمدية..

كانت إذاعة صوت العرب تبث موجزا للأخبار، والمجاعة في الصومال، والوحدة الأوروبية، والعملة الموحدة.. غنى هاني شاكر "يا ريتك معايا" .

ليس عنده أعز من الروح، والروح مرهونة في يديك.

سيجارة تلو سيجارة حتى انبلج ضوء الصباح على استحياء.

في الصباح حمل إليه صديقه الإفطار، ركض حازم وأسماء إلى الداخل، أوقفهما بإشارة من يده، عمّكما نائم. ولكنّه نادى من الداخل لست نائماً.

ركض الولدان نحوه، هزيلان، في عيونهما براءة، لم يخجلا من القفز واللف والدوران حوله، تآلفا معه سريعا، وأحباه بسرعة البرق، كأنهما زهرتان في طور التكوين تُحلّقان في هالة حول القمر.

احكِ لنا حكاية..

"كان ياما كان ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي العدنان.. طفلان صغيران ، حازم وأسماء......."

وعندما انتهى من سرد الحكاية صاحا به.. احكِ لنا عن العفاريت..

وهنا تدخل جمال وهو يقول :

- ما رأيكم أن نذهب إلى النهر لنصطاد السمك؟

في صغره دخل معظم بيوت القرية، يكتب أو يقرأ رسالة، رأى الأمهات والبنات ومحتويات البيوت، كانت إلى حد ما متشابهة، واطّلع على الأسرار.

احسب لي يا ولدي، بنت فلان تزوجت ابن فلان، تزوجت صغيرة، الحق على أمها رمتها في النار، وها هي تطلقت وعادت بطفل في حجرها، وفلانة بنت

فلان فاتها قطار الزواج، منحوسة بنت منحوس، وابن فلان بيشتغل مع الحرامية وقطاع الطرق..

عندما جاوزت الساعة الثالثة عاد إلى البيت، زار أخته، وطاف على بيوت القرية..

وراح يضع ملابسه في الحقيبة ويستعد الآن للعودة..

من الخطأ تصل للصواب، وفي الظلام تتكشف أمامك مصابيح الضوء فتنفجر داخلك ينابيع القوة والإيمان، سافر إلى أماكن مجهولة لتعرفها، لتعرف حقيقتك وحقيقة الآخرين، لا تؤمن بحقائق حياتية مجردة، فكل شيء نسبي، ليكن إيمانك بالخالق مطلقا لا لبث فيه، الله هو الوجود الحقيقي وما عداه زائل.. يا ولدي بداخل كل منا بذرة ربما تكون للخير وربما تكون للشر، مَن منهما ستنبت داخلك.. الوالد مجاهد وشيخ طريقة، وفيلسوف..

كان جمال يقول له ذلك من آن لآخر، وكان يُفاخر ويقول : أبي من أبطال التحرير شملت نظرته البيت كله، وجال في أرجائه، نظراته يشوبها الأسى والافتقاد. وراحت دمعة تنحدر على خده..

- حاذر من السقوط..

يتذكر النصح، وهو يستدبر البيت مخلفا وراءه ذكريات حلوة من طفولته ومراهقته، أمه وهي تحكي له حكايات الجن والعفاريت فيختفي في حضنها، أبوه وهو يربت على ظهره وهو في حضنه.. ربما تكون هذه المرة هي الأخيرة، ربما هذه المرة تبتلعه المدينة بشكل كامل.. السيارات وعوادمها والزحام وأحاديث الجنس والرياضة والأغاني والكلاب الضالة.. لا يدري ما سيحدث،

ومن يدري، لكن الهواجس والكوابيس كثيرة وفجأة ها هو جمال قادم من بعيد مع ولديه.

- ستسافر؟ ابق معنا يوم آخر، لم أنت مستعجل هكذا!

- قضي الأمر.

- إذا دعني أرافقك إلى المحطة.

- لا داعي لذلك، الوداع مرهق يا صديق، سأستقل السيارة المتجهة إلى المدينة.

كان يحمل الحقيبة في يد وفي اليد الأخرى أمسك بكف أسماء، وللحظة ما وقف مبهوتاً، عندما مرت أمامه، هل تشبه أحداً يعرفه؟ مريم ، ميريت! دخل كل كيانها عينيه فارتعش.

يشعر أنه سيسقط، ولكنه عاد لفقدان روحه ووحدته، لكن وهجها ودفأها وعطرها .. مرّت هكذا الآن من أمامه ، أوشك للحظة أن يذوب البعد بينهما، روح، يا قطعة السكر في فمي، حدّق فيها، كانت ولم تكن، ولم يكف عن التحديق، أعطته ظهرها وأخذ وجهه كل البرد والضياع والفقد.

- ما بك؟ هكذا قال جمال وهو يهزه بقوة.

بلا روح.. تجهمت السماء في وجهه وابتلعه الوجود البارد في سراديبه ومخالبه العطنة.

مُنالَكِ صعب، وكلما صِعُب المنال احتدمت في قلبه الآمال والرغبات، واشتد الصراع يا توأم الروح.

- يا صديقى هوّن على نفسك، قلبك مُتعَب.. زفر دخان سيجارته.

وعند الوداع تعانقا في حرارة بالغة ثم قال جمال :

- اتصل بنا لنطمئن عليك، كل يوم إن استطعت وأبلغني بنتيجة التحقيق.
أخذ الولدين في حضنه وقبّلهما وهو يقول :
- كونا بخير، أريدكما طبيبا ومهندسا.
وقال الولدين في صوت واحد :
- زُرنا قريبا يا عم عارف، نريد أن نراك كثيرا، نريد أن نسافر معك.
- في المرة القادمة، أعدكما.
نظر إلى جمال الذي مطّ شفتيه ولم يقل شيئا..
نادى السائق أن السيارة ستتحرك، دخل السيارة، وعاد جمال وولَدَيْه إلى البيت، رويدا رويدا راحت البلدة الصغيرة تتضاءل كشاهد قبر في صحراء شاسعة، وبَدَت المصابيح كعيون زجاجية مُغبّشة، وما لبث أن تبدّد ضوؤها في الظلام.
"أبي يبدو بلحيته وكلامه وتكوينه كرجل من العصور الوسطى" كانت عبارة مريم التي تردّدها من آن لآخر.
طُغيان يُخلّفه طُغيان وهو بين حجري الرحى مكسور، أَوْغلت السيارة الميكروباص في الطريق إلى المدينة.
كان يناديها "روح" فتجيبه بنعم .
تطلّ بعبيرها الصامت، ببوحها الخاص، بكل روحها..
- نعم.
ويقول :
- لا أعرف أيّا منكما جاء قبل الآخر، النيل أم أنت.

وتبتسم كأنما حدائق الفردوس تدنو منه، نعمة يتمدد تحتها من حرقة الشوق وتقلبات زمنه، ورعونة عالمه، تُعْتق روحه من قيود وهواء الحجر المغلقة ورطوبة الأيام، ووحدة مسكنه وتعاسة لا قدر لها تحيط به..

قالت وكأنما تهدئ من روحه المتعبة :

- أصبحت شاعرا أيها الشاعر.

- أقول ولا تطاوعني الكلمات، أنتِ حروف قصيدتي، كان لابد أن تكون حروف الأبجدية كلها خمسون حرفا، تسعة وأربعون لكِ وواحد للعالم.

نظرتها حانية وعطوفة.

- أنتَ طيب جدا.

- أنا..

- ألا تعرف؟

- أعرف من عينيكِ، أجمل عينين رأيتهما..

- وهل رأيت عيون النساء جميعاً ؟

- أنتِ كل النساء.

- يا مجنون.. أنت مريض ..

- أنتِ .. البدء والمنتهى، القصد والغاية ..

قالت في لهجة حانية :

- أنتَ حبيبي.

- أنا؟

- ألا تعرف؟

نظر في عينيها وهو يأخذ وجهها برفق بكلتا يديه :

- فقط حينما تكونين معي يغيب العالم كله.

- كعادتك تبالغ.

- أكون بكِ.

- أو بدوني.

- أنتِ أنا ، كلانا في الآخر.

- هل تشعر بالألم؟

- أشعر بكِ فيّ.

- بآلامي؟

- بكيانكِ كله.. أنتِ اليوم بهاء النجوم، انظري من نافذة روحي.

راحت تدنو منه وتبادله النظرات حتى شعر بأنفاسها الدافئة تملأ وجهه :

- ها أنا أنظر.

- ماذا رأيتِ؟

- عيناكَ جميلة، لونهما عسلي، ووجهك أيضا جميل.

ابتسم وهو يقول :

- تمزحين؟ قولي أمرا أصدقه.

- شاحب قليلا كلون القمح، لكنه أجمل وأنقى وأبهى.

- أنتِ قمري..

- مشقوق نصفين.

- وزهرتي.

- على حافة نهر سوداوي.

- وبرتقالتي.

- غصنها ذابل.

معها تُعْتَق روحه من القيود، ظلّها رقراق فوق رأسه، يلوح كغمامة تنداح بها حرقة شوقه، يتنسم عبيرها، يجدد بها هواء حجرته، وتعاسته، وتحطّ أحلامه طيورا زرقاء وحمراء وبيضاء لتلتقط الحب من راحة يدها..

- روح .

أطلّت بعبيرها، بكل ذرة في كيانها.

- نعم .

- ألن تخبريني؟

- بماذا؟

- لا أعرف حتى الآن أين تعيشين.

قالت وهي تنظر بعيدا وكأنما تزيده حيرة :

- اسأل النيل والمؤرخين وحتى شياطين الكتب.

- أنا أسألكِ أنتِ.

أشاحت بعيدا وهي تقول :

- وماذا سيتغير، الناس، واحتمالات مسار التصحيح، وخطط الفاشلين، ومدّعي الزعامة، والعقارب التي تدور للخلف، والمصابيح المفقودة والتالفة، وأرواحنا المكسورة وضمائرنا الخاملة.. كيف نتفادى كل ذلك؟

- أنتِ.

قاطعته قائلة :

- لابد أن أذهب الآن الوقت تأخر جدا.

- ألن تخبريني؟

قالت وهي تبتسم :

- في زقاق كذا.. حارة كذا.. مدينة كذا.. وطن كذا.. عندما يحين الوقت ستعرف.

خلال سنوات الجامعة، وثلاثة أعوام بعدها لم يتمكن من معرفة أين تسكن، وكلما حاول فشل، حتى فتحي أبو العلا صديقه أبو العريف كما كان يسميه لم يتمكن من معرفة ذلك.

أما فتحي فكان يأخذه بصبحته ليخرجه من همه، وكان ساخراً، ورغم أنه لم يكن فقيرا إلا أن معظم أصدقائه كانوا من أبناء الطبقة الفقيرة. كان مراوغا، صاحب دعابة ونكتة لاذعة، يتندر على أبناء طبقته، حاكيا عن سهراتهم وما يدور في الشقق المفروشة، المستأجرة والمملوكة، والسهرات المعبأة بالطعام والخمور والنساء والمخدرات، وطالبات الجامعة، وأجنبيات، وكان يعقب..

- عالم شديد القذارة، لكن سعيد بقذارته..

وعند ذلك ينفجرون في الضحك.. ليستكمل هو حديثه :

- وأنا مثلهم قذر، أتظنّون غير ذلك.. ثم يشير نحوهم :

- لماذا لا تصبحون مثلنا، ماذا أخذتم..

ويرد أحدهم قائلا :

- تنازل عمّا معك لنا لنصبح مثلك..

- "قصر ديل قصدك".. اسمعوا أيها التعساء..

ويصمت الجميع وتتوجه الأنظار :

- هل أنتم مستعدون؟ واحد من أسيادنا من فوق، فوق قوي، كان يعرف رقاصة و... ثم ينفجر الجميع في الضحك معقبا :

- أخبرتكم أنه عالم وسخ..

* * *

من بعيد لاح معبد أبيدوس صغيرا كما لو كان مدفونا تحت الرمال وما عليه أقيم حديثا، صغيرا كان، لا يوحي بجمال ولا روعة، مهدم إلى حد ما، وحوائطه الخارجية تحدد حيزه الذي يشغله على أطراف المدينة من جهة الغرب، في حين كانت قطع الحجر الضخمة المتناثرة هنا وهناك كأنما ترثي حالها وحاله، وكانت النقوش والرسومات محفورة بدقة وعناية، ولازالت جيدة وصالحة للقراءة، وليست بحاجة لنظارة طبية، تطلع إليه من الخارج بينما المعبد الساكن يتحدى نظرته بشيء من الصمت القاسي والدهشة.

راحت ميريت تلتقط الصور هنا وهناك، ثم دلفا من باب حديدي مطلي باللون الأسود، وكان الضوء الذي يدخل من الخارج عبر كوى وطاقات غير مؤثر، في حين كانت المصابيح الموضوعة في السقف والطاقات والزوايا تضئ المساحات المظلمة منه، بدت الأرضية غير مستوية وغير نظيفة، وكانت الأعمدة بعضها مربع وبعضها أسطواني، وبدا السقف بعيدا عن ذي قبل،

وبدت العيون الأربعة تلمح رسومات جديدة محفورة وعشوائية، وبطرقة رديئة تحوي غرفة وراء غرفة.

- الفراعنة لم يتركوا شيئا إلا فعلوه.

قالت ميريت بدهشة وهي تنظر في رسم منقوش على عرض الممر والتفت هو إلى ما تشير إليه، إيزيس مضجعة وأوزوريس على شكل طائر في طريقه لتلقيحها. لم ينبس ببنت شفة في حين نظرت ميريت إلى وجهه، وضغطت على يده، عند ذلك احمر وجهه وارتبك ولم يفعل شيئا حيال ذلك، ثم دنت منه حتى شعر بأنفاسها.

دبت في الخارج حركة أقدام وأصوات مبهمة وهمهمات، عند ذلك سارا متجاورين عبر سرداب يقود إلى الخارج حيث الضوء.

* * *

أوغلت السيارة على الطريق الذي يكتنفه ظلام داهم، وصمت الفراغ في الفضاء الخارجي الذي يتسع حتى يبتلع الجميع .

ها هو يترك البلدة التي اعتقد وقتما هبط عليها أن أهلها ميتون، وأكد له جمال أنهم أطلال زمن لا يبكيه أحد من العقلاء، وها هي تبدو فعلا كشاهد قبر يبتلعه المجهول.

انطفأ كل شيء وخمد مصباح زجاجي باهت في سقف السيارة، وتكاثفت قطرات المطر التي تجمعت على نوافذ السيارة الجانبية والأمامية، وراحت ماسحات المطر تعمل لتنظف الزجاج الأمامي.

ظلام ملفوف ببرد الليل يهاجم السيارة، وعلى جانبي الطريق بدت "دغلات الحلفا" داكنة ومرتعشة وعجوز تشكو الوحدة والفقدان وكل الهجر. وراح

الركاب ينكمشون ويتداخلون في بعضهم البعض كالقنافذ، غير مبالين بشيء سوى البرد ورهبة الليل والخوف المتربص بالطريق.

هل سيفلح التكاتف والالتصاق في وقف البرد الداهم، ولم يعد أحد من الركاب مستيقظا، وكأنهم تواطؤوا على الصمت الذي ينبعث من كل جنبات السيارة، لا كلام ولا حركة، فقط الأنفاس والرغبات النائمة داخل الصدور في الوصول إلى نهاية الرحلة بسلام ودون عراك.

* * *

القاهرة ذلك العالم المخيف، ليس من الصعب أن تدخلها ولكن من المستحيل أن تخرج منها دون خسائر.

تلك فلسفة مريم وقديماً أخبرته أمه قائلة "تزوجت من أبيك بقروش، لم يجلب لي جهازا، خلخال وصندوق من الخشب به بعض الملابس، ومهر كان خمسة وثلاثون جنيها، ولكنني كنت معه ملكة، أبوك رجل نبيل وشهم يا ولدي"

ولما شعرت بدنو أجلها قالت له وهي تدفع بِصُرّة في يده :

- لم أعطه لأختك، أنت أولى، أخبرها أني أحبها.

ابتاعت ميريت أثناء رحلتها جعران فرعوني وعلقته في رقبتها، وأبطأت السيارة حينما شارفت على الوصول إلى حاجز للتفتيش.

بدا الأمر في نهايته غريبا، شيء ما على الطريق يبدو مريبا وفي نفس الوقت مفجعا.

نبه السائق على الركاب أن يستيقظوا وأن يجهزوا أوراقهم التي تثبت شخصية كل واحد فيهم .

أجولة معبأة بالرمل، ومرصوصة فوق بعضها مثلما يحدث في ساحات الحروب لتكون ساترا لمن خلفها، ولاح من فوقها الجنود بخوذاتهم وأسلحتهم.. هل ذلك يبدو عاديا هنا وطبيعيا، أم أن هناك شيء يبعث على الخوف.. أنت يا ولدي لم تر شيئا ممّا كان، البلاد كانت في قبضة الملاعين، يبدون كبراغيث الشتاء، قبيحة وصغيرة لكنها ورغم ضآلتها فتاكة، تطير النوم من العين ، كانوا يتجولون طيلة الليل والنهار، سيطروا على الطرق، ودخلوا البيوت ولم يراعوا حرمة أحد، نهبوا وسرقوا، وارتكبوا الفواحش، خطفوا الناس من الشوارع وغيّبوهم لأشهر دون أن يعرف أحد مكانهم، كانوا يسألون الجميع، حولوا الناس إلى مخبرين، وكانوا يضربون الناس بلا سبب، ولم يستثنوا أحدا، حتى من كان يخدمهم، ولم يجرؤ أحد على الرفض، كان القتل هو الرد.. ورغم كل ذلك وفي نهاية الأمر خرج الناس يخطّطون وينفذون ويغتالون ..

اقترب ثلاثة رجال من السيارة، شرطي وجنديين، توجه الشرطي إلى السائق أينما راح الجنديان ينظران من الجوانب على الركاب، كان الذعر باديا ودونما سبب عليهم، هل زال البرد وحل الخوف، ضفدع صغير منبوذ في عراء ليلة عاصفة يلوذ بوكر حيّة..

أليس الستر أمنية كل إنسان، أم صار مقصورا على الفقراء؟ الحرب يا بني تنتهي عندما ينحدر خصمك إلى الحضيض ويتجرد من الحرب يا بنى تنتهى عندما ينحدر خصمك إلى الحضيض ويتجرد من أليست الضراعة دائما روح الفقراء.. كان أحدهم بجواره يتمتم ويغمغم بشفتين جافتين وروحه كأنها تهتز في بدنه وترتجف، محموما بدا الولد، ربما رتابة واعتياد..

- ربنا يستر.

وأطبق صمت قاتل وانحبست الأنفاس في الصدور، وأنجب التفتيش عيونا صغيرة منكسرة، ومثلما تقع جريمة قتل أو اغتصاب أو زيارة فجر، صاح صوت وهو يشير إلى أحد الركاب ..

- أنت وأنت ..

كانا ولدين يجلسان في المقعد الأخير.. باردين كقطعة رخام، حارين كلهيب تموز في أجساد بسيطة من مدينة الرخام

والتعاسة.. هل أراد أن يقول شيئا أم أنه بحث عن لسانه فلم يجده إلا جافا وهشا، لابد أنه خاف.

انحراف صغير نحو مفهوم عصري يشمل القطرين المنفصلين بدنيا عن منطقة الوسط وذهنياً عند العورة.

رتّل كلاما، ورتّل أحلاما، وقلّب أوضاعا، وأقام بحورا من الصدف والحجر، ثم اختفى قريبا من مفهوم اللائذ بحرم القائمين على تكية خاصة.

- العدد مضبوط، تمام ياباشا ، الأضواء سليمة ، البطارية ، طفاية الحريق ، السرعة ،

مساحات المطر، مفيش مخالفات، تمام يا باشا..

قال السائق المتلفع بلفاعة خشنة من الصوف، تغطي كتفيه ورأسه، وقد أقفل الراديو منذ أن لاحت له إشارات التفتيش.

كل الأشياء تتوقف ساعة أن يدق مسرور بسيفه على بلاط صاحبة الجلالة معلنا حضوره الشفهي والتحريري، لحظة أن تخرج الأوامر الملكية الغير قابلة للمراجعة.. إنا أنذرناكم عذابا قريبا.. ومثلما كان في صمت هبط في

صمت، وهبط الجميع بنفس الملابس.. قطعتان في رقعة واحدة لا يملكان قرار الانفصال، هل اقشعر بدنه، هل لازمه الخوف، هل ارتجفت أوصاله حينما تلاقت العيون؟ هل شعر لحظة واحدة بالثقة، وأنه ما من شيء يدعو للخوف، وأن ما يحدث مجرد حدث عابر وروتين ممل يتكرر برتابة كل يوم؟ فحوى النظرة التي حدّقت به تشير إلى عكس ذلك وما حلم به وما أوهم به نفسه.

- بطاقتك؟

مطلب عادل وبسيط .. أتبعه باستفسار آخر:

- هل تعمل؟

أجاب :

- مكتوب عندك في البطاقة.

- شهادة الخدمة؟

- معفي لأنني وحيد.

- معك ما يثبت؟

- عمري تجاوز الثلاثين.

فكان الأمر:

انزل ..-

وقعت الكلمة على رأسه كالصاعقة :

- هل هناك شيء معين؟!

- بضعة أسئلة وتنصرف.

كيف بدأت اللعبة، ومتى ستنتهي.. مريم تكلمي أنتِ مطالبة بتفسير، كيف يعثر عليها الآن؟ وما علاقة مريم بما يحدث.

وأشار الضابط بيده فتحركت السيارة وخلّفته وراءها، تلفه بقعة ضباب لا يدري متى سيخرج منه؟ طغيان يخلفه طغيان وهو بين شقي الرحى صار معلولا..

عبر الطريق إلى موقف السيارات، وجلس في المقعد الخلفي وألجأ رأسه إلى المسند وأغمض عينيه، فبدا كجمل أنهكته الأحمال، وتورم جسده من عصا الحمّال الغليظة.

بدأ المطر خفيفا، مجرد قطرات، ولكنه بمرور الوقت سينهمر، ولكنه يرقبها بعينين متعبتين وهي ترتطم بزجاج النافذة، ثم تمزقها الحادّ العنيف لحظة اصطدامها بالزجاج.

وراح الناس يهرعون كي يحتموا بين فجوات ومداخل البيوت والمحال التجارية، وأسفل الكباري و أي مكان لا تصل إليه الأمطار، وبدا الأسفلت مغسولا ونظيفا ولامعا، وكأنه زجاج مصقول.

"المطر رحمة من رب العباد" كان أبوه دائما وقت سقوط المطر يقول له هذه الجملة حتى حفظها عن ظهر قلب، وكان يضحك ويغني.

عَبَر من شارع إلى شارع، وراح يُشعل سيجارة من سيجارة، هي ذات الأحاسيس تتغلغل فيه، توقظه من جديد، تشعل رأسه نارا، وتُحيل قلبه إلى

فضاءات زرقاء، والسيارات والفتيات يراهن منسجمات مع ذلك وكأنه سر.. المرأة وعلاقتها بالمطر والأرض.. ماء وطين، ثم صراخ مولود صغير.

صارت شعورهن خصلا متعرجة يَقطُر منها الماء، وها هنّ كالعادة يضممن بشقاوة كتبهن المدرسية بأيديهن الصغيرة الوردية الرقيقة إلى صدورهن، يتضاحكن بطفولة وصبيانية خاصة، وقد اتسخت أحذيتهن وجواربهن البيضاء بالطين المتناثر الذي كانت تقذفه السيارات المارقة بجوارهن في سرعة خاطفة وكان الغناء يمتزج بوقع المطر الذي شكّله ولوّنه ومزجه برائحته الخاصة، وقدرتها الكامنة على الإخصاب، بدت العملية كسر التحنيط عند قدماء المصريين.

الضحكات عسلية، والخدود تتضرج بحمرة خفيفة من لسعة البرد، وكانت الأيدي تسارع إلى الشفاه الوردية لتمسح قطرات المطر التي تنساب عبر الخدود، فتبدو الأسنان بيضاء، والبسمة رقيقة.

في هذا الوقت تتخلى الوجوه عن أحزانها وقهرها ومشاكلها المنتظرة، الآن تُحطّم قيودها وأعرافها وتتخلى عن أوامر سجانيها.

مزامير السيارات ولون الفضاء الفضي المائل للزرقة، المحمل بالمطر وصوت فايزة أحمد "بكتبلك ع الشوارع وع القمر اللي راجع".

أسرع هو وميريت تحت المطر ركضا وقد أخذت يده في يدها، وكلما ابتعد جذبته إليها، ناسيا بروتوكول المعاملات الشرقية، نسي ما يتعلق بالتاريخ والجغرافيا، نسي خوفه وقلقه وقراره في أن تظل هناك مسافة لا ينبغي أن يتجاوزها.

الآن وفي هذه اللحظة كان عليه أن ينسى عقله وقلبه لغموضها وفتنتها وارتجاف حساباتها وقصصها التي تتغير وتتبدل من وقت لآخر كما لو أنها تنسى متعمدة.

دلفا إلى بناية مرتفعة، جغرافيتها وتاريخها، وحدودها وزمانها ومكانها، وتاريخها المعلق على الجدران.

عند باب الشقة أعطته حقيبتها، كان يعرف البيت من الخارج، إذ أعطته مريم العنوان من قبل، والآن سيعرفه من الداخل.

قالت له مريم :

- ميريت شخصية جميلة، وقوية..

سألها :

- وماذا بعد؟

- وجريئة، إنها امرأة غربية.

- هل تحذرينني منها.

- لا طبعا ولكني فقط أقول لك لا تندفع معها.

- أنت تعرفينها جيدا إذا.

قالت :

- المرأة عندما تنظر في عيون امرأة أخرى تعرف بعض مالا يعرفه الرجال، ميريت امرأة أمريكية، وثقافتها غربية.

- وهل تعرفين ماذا تريد؟

قالت :

- ليس عندي فكرة عما تريده ولكنّي أعرف أنها تريد عملا.. وإياك أن تعتقد أنها تريد منك مثلما فعلنا معا.

قال وكأنه يدافع عن نفسه :

- أنتِ من بدأ ولست أنا.

اختفت ميريت لخمس دقائق، فراح يتعرف على الشقة الصغيرة الأنيقة، حجرتين فيما يبدو وصالة واسعة، مقاعد قليلة، وصور وبورتريهات على الجدران، وأيقونات، وأشياء متناثرة، جريدة ومجلة وأكواب كريستال ومزهرية وكاسيت وشاشة عرض وتذكارات فرعونية، والأرض مغطاة بالسجاد الثمين، وجهاز تكييف.

- الجو بارد؟ جاءه صوتها..

أجاب مؤكدا :

- نعم.

- لديّ فطيرة تفاح وبيتزا، هل تأكل معي؟

- لست جائعا، والوقت مبكر جدا على ذلك.

- تحتاج إلى شراب دافئ.

كانت قد استبدلت ملابسها ودخلت عليه حافية القدمين.

جلبت زجاجة وكوبين فارغين.

قالت :

- سيساعدك على التماسك، أنت ترتجف.. ثم أردفت وهي تشير إلى المدفأة :

- تعطلت بالأمس فقط.. هل معك سيجارة؟ عندنا الجو بارد، نحن معتادون على ذلك، الوضع هنا مختلف، بالنسبة لنا كأنه فصل ربيع.. بلادكم ساحرة.. الشمس والهواء والموقع والوقت ..

قال كأنه يسخر:

- ورغم ذلك أغنياؤنا يذهبون إلى بلادكم.

- السفر حرية.. ربما يحصلون على أشياء لا يجدونها هنا .

ثم مالت عليه وهي تقول :

- عندنا حرية في التفكير والثقافة وأسلوب المعيشة، أنتم تقليديون جدا.. رتابة وملل، وكأنه نمط واحد لا يتغير..

قامت ميريت وأدارت قرص الموسيقى، بدت هادئة جدا وراحت تدندن وتهتز..

سألها :

- موسيقى الراب؟

كانت مثيرة، تدور وتدور كنحلة أفقدها الرحيق صوابها .

- عارف.. قالتها بلهجة ناعمة..

- نعم.

- تعال راقصني..

هز كتفيه ومط شفته وقال :

- لا أعرف

اقتربت منه :

- سأعلمك..

قال لها :

- سأشاهدك ..

تنثني وتنفرط، تنكمش وتتمدد، ليّنة، شهية، دخلت كل تموجاتها واهتزازاتها في عينيه، انغرست كإبرة حادة في دمه.. ما هذه الفتنة؟ هذه الموسيقى تحطم قيود الجسد فتجعله حرا وطليقا كالعصفور.. كسحابة زرقاء، تماما كسمكة تفلت من عنف الموج، وثورة المد والجزر، إنها طقوس شرقية هدفها تخليص الجسد من أعبائه ومتاعبه.. عندئذ يكون أكثر صفاء.. هل جربت الثورة؟

كان جسدها قد تصبب عرقا، وقد بدا لامعا والضوء ينعكس عليه، كانت فاتنة إلى حد بعيد، وجهها ورقبتها وحواف صدرها وحتى قدميها الصغيرتين بدت ناضحة بالعرق.

قال :

- أنا أحب الموسيقى الشرقية، أحب عبد الحليم وأم كلثوم ونجاة وفيروز.

قالت وهى تنظر إليه في هدوء :

- لابأس ولكن لنجرب الجديد.. أنت متمسك بالقديم بشكل كبير.. جرب أشياء جديدة.. لابد أن تساير الحياة.

وكانت تحاول التقاط أنفاسها بعد المجهود الذى بذلته في الرقص.

- صار جسدي أكثر دفئا.

- أنا لا أجيد الرقص.

- هل راقصت مريم؟

قال وهو يبعد عينيه عنها :

- رقصت بمفردي.

- مريم قالت لي أشياء عنك.
انذعر وهو يرمقها بنظرة غاضبة وقال :
- ماذا قالت لكِ؟
- مالك خفت هكذا ؟!
- رقصت بمفردي.
- طيب.. خلاص..
ودنت منه ومدت يدها وأمسكت بيده وهي تقول :
- جرب معي .. تعال سأعلمك ..
- ماذا تريدين مني؟
- سنتحدث في ذلك فيما بعد.. هل أنت خائف مني؟
وكأنها تضغط عليه، فقال في عصبية :
- منكِ؟! لا.. ولكنني لا أعرف الرقص.. عند ذلك قالت :
- حسنا تعال إليّ.. اترك نفسك لي وسوف أقودك، كن مسترخيا كما لو كنت نائما.
ولفت يده حول خصرها النحيل ووضعت راحة يدها في راحته، ووضعت يدها الأخرى حول رقبته ، وراحت تتحرك به ، خطوة ، إثنان ، ثلاثة ، انقل..
- قدمك مع قدمي، لا تنظر إلى أسفل ، انظر إلى عيناي، ملونتان وواسعتان وبشرتها بيضاء وردية..
بدأت قدماه تأخذ المبادرة والثبات على أرض ميريت..
- أنت تتعلم سريعا.

هل سينجح عندما يبادر، هل سيخطط لشيء جديد.
تجذبه إليها فيطع..
عيناها بلون الطحلب المكدس في نهره وكلما حاولوا إزالته تراكم أكثر وبدا مستعصياً على الهزيمة ..
أهداب طويلة ، وشعرها الأشقر على حواف أذنيها والجزء العارى أعلى صدرها .
ليس طويلاً كشعر مريم الأسود ، ولكنه مبهر ، أحس بيديها وهى تزحف فوق ظهره ثم تضغط عليه في رفق ، دنت منه أكثر وأغمضت عينيها ، تتشمم جسده ،
تحاول التمكن منه في اقترابه ، والإمساك به في ابتعاده ، لغة مد وجزر، تترك الشاطئ عاريا ثم تعود لتملأه بالمحار والأصداف من قلب البحر شديد الزرقة.. أليس لذلك نهاية؟
- قد تكون المتعة..
نظر إليها كأنه لم يفهم ما عَنته.
- النساء مثلا.. السيّاح العرب.. أخبرني ألم تمارس الجنس أبداً؟
توقف عن الحركة ثم تقهقر كأنه يهرب من سؤالها الصريح المباغت، ومن نظرتها الخبيثة.. قيده السؤال، يرخى لي حبل الفرار ثم فجأة يحاصره بجغرافية..
- إذا فهناك عذر.. هنا قيود كثيرة.. وهناك يمارس الناس حياتهم بمنتهى الحرية.. هنا تقاليد وأعراف.. هناك حريات بلا حدود.. ثقافة مختلفة.. عادات وتقاليد مختلفة.. أفكار وأسلوب حياة مختلفَين..

قال كأنه يترجم كلامها :
- ونحن بذلك رجعيون؟
- ليس بالضرورة أن تكونوا كذلك.. لنقل أنكم لا تتقبلون التطور والتقدم إلا بشكل شديد البطء والرتابة.. أنتم تريدون أن تكونوا نسخا طبق الأصل من كل قديم..
ألقى جسده على الأريكة المريحة في مواجهة شاشة العرض وراح ينظر وهو يرفع إلى فمه كوب الشراب الذي قدمته ميريت ربما لم يذُقها إلا مرة واحده وكانت خديعة من أحد أصدقائه وبكأس واحدة فقد صوابه، لم ينقطع عن الصلاة حتى جاء إلى القاهرة وعاش فيها.
- ألم تمارس الجنس في حياتك ؟
باغته أيضا سؤالها الصريح أنتم تخجلون من مناقشة هذه الأمور مع أنها طبيعية جدا مثلها مثل الطعام والشراب، التاريخ الفرعوني سجل نشاطات الحياة البشرية في كل جوانبها، على جدران المعابد والبرديات، وبدءا من الحرث والبذر والحصاد والحرب وتسجيل الانتصارات وحتى فيضان النيل وحتى زينة المرأة ولباسها وأمورها الشخصية.
هز رأسه وتمتم :
- صحيح.
- أنتم الآن تشبهون أوروبا في العصور الوسطى.. حكم رجال الدين والكنيسة والإقطاع ورجال الحكم.. الثورات حررتنا من كل ذلك.. كل شيء قابل للتطور، للحياة والموت.. يا عزيزي ليس هناك مقدس، العلم هو روح الحياة، والتجربة.. سيدة الموقف.

سألها :
- كيف هو إيمانك بالمسيح؟
قالت دونما ارتباك :
- المسيح في الكنيسة وأنا لا أذهب هناك إلا نادرا.
- ألستِ مؤمنة؟
- كل منا لديه إيمانه الخاص.. الأعشاب الطبية وقوارير الزيت والعطور والأدوية والكتب الجنسية والدينية كلها في مكان واحد على أرصفة الشوارع.. وكذلك كتب السحر والشعوذة.. أنتم متناقضون مع أنفسكم .. كل ذلك ألا يصنع إنسانا مشوها تائها، يعيش في دوامة من العزلة والعجز وعدم القدرة على اتخاذ القرار في عصر يموج بالتغيرات والتقلبات.
ثم أمعنت النظر في عينيه وهي تجلس أمامه على ركبتيها وتقبض براحتيها على ركبتيه وقالت :
- أنت مثلا.. كم مرة راودتك الرغبة في إقامة علاقة جنسية؟ كم مرة نظرت إلى صديقتك مريم وتمنيتها معك؟
جرب مرة واحدة حينما ذهب به صديقه فتحي أبو العلا إلى بيت من البيوت التي كان يعرفها، وهناك رأى ما أدهشه، ولكنه لم يفعل شيئا، اجتاحه الخجل والخوف من ذلك فانصرف رغم إلحاح صديقه عليه.
منذ جعلته مريم يكتشف عالمها، ومعالمها، ويتعرف عوالمه وخصوصياته حتى تخلى عقله عن سكونه، وانفجر كدوامة، وراحت تبدو له المصبّات والمنابع، لو أمكنه أن يندفع إلى حافة الجنون لفعل ، كان يقول في نفسه أن الصياد لو كف عن الصيد يموت.. فقط كان يتمنى لحظة الامتلاك،

الضعف والألم.. لكن مريم هي الوحيدة التي سيطرت على تفكيره بكل ملامحها الحلوة ، وجسدها الجميل وطريقة كلامها وحتى مشيتها والسلام عليه والنقاش معه.. مريم .. كانت البداية الحلوة في حياته، امرأته الأولى قبل أن تظهر في حياته روح الحياة وتستولى على عقله وقلبه وروحه بشكل كامل..

تزوجت مريم، ولم يحالفها الحظ في الإنجاب، وأسقطت أول جنين لها بعد حمل دام لثلاثة أشهر.. أما هو فقد كاد أن يدخل في تجربة مع بنت كانت تعمل مضيفة في فندق خمس نجوم، وكانت تملك جسدا لايقاوم وملامح تشبه ملامح بنات الذوات..

شرد منها ولاحظت ذلك.

- أنت لم تكن معي، أين ذهبت ياصديقي؟

أجاب :

- ماذا؟

- كنت شاردا.. لم تكن معي..

- لا أبدا، أنا معك.

- نحن لسنا آلات..

- نعم.. نعم لسنا كذلك ..

- وعلى هذا الأساس يسافر الناس، ربما علاقات عابرة، هذا أيضا يحدث في القاهرة..

- ربما.

وشعر برعشة تسري في بدنه فضم يديه على صدره.. لاحظت ذلك فسألته :

- بردان؟
- قليلا.
- أعطني يديك.
مَدّ يديه إليها فراحت تدلكهما بهدوء.
- هناك احتفالات في القاهرة اليوم ..
- نعم ..
- أناشيد ورقص شعبي وغناء.. أنتم بارعون في ذلك..
غمغم دون أن تسمعه :
- وخطب وشعارات بلا معنى.
ولكنه شعر بدفء في يديه..
سألته :
- أنت الأن أفضل؟
أومأ بنعم، فراحت تتابع تدليك باطن كفيه، ثم مسّت يداها ركبته وهى تمر عليها ببطء..
- على فكرة.. وجهك جميل، عينيك عسلية.. وانتصبت ميريت على ركبتيها وهي تقول :
- وجهي أجمل أم وجه مريم؟
قال في دهشة يغلفها الخجل :
- لست أدرى .
- يمكنك أن تنظر إلى وجهي جيداً.. اقترب أكثر وقل لي.
- أنتِ مختلفة عنها.. وراحت أنفاس مريم تحوم حول وجهه وتغمره بدفئها.

شفتاها ممتلئتان وبلا أصباغ ولكنهما حمراوان رغم ذلك.. زحفت ساقها نحوه ومالت برأسها نحو صدره، ووضعت يدها على صدره، بدا وكأنه قد استسلم، وعندما مسّت شفتاها خده بدا له أن المكان ينهار وأن شيئاً ناعما يلامسه، وانتفض حين شعر بيدها على بطنه، وبدت أنفاسه تتسارع وتتهدج..

- المصريون بارعون..

- ربما..

- تهتمون بالنصف الأوسط من الجسم..

حرب مُعلنة وليست بريئة، وها هي تستخدم كل وسيلة حتى تجعل الجولة الأولى لصالحها، وها هو يتخذ قراره، ولكنّ قواه تخور، وأفكاره تتشتت، وصفوفه تتفرق، كل خطوطه الدفاعية تنهار، كيف يردّ عليها وأين؟ هل هذا وارد ضمن خطته وأفكاره.

خمشت صدره بأناملها وفرقت شعره الملتف على صدره، تتفتح مسام جسده حتى تستقبل دم ميريت البارد. استدعاء عاجل لأبي نواس، دعوة مجانية من أجل مشاركته متعة الشراب إلى أنغام موسيقى الراي والراب والجاز والكلوز والبلوز..

عندئذ تقرع الكؤوس، في نخبك يا صديقي من خمر ميريت، أشهى أنواع الخمور، أتعرف.. قطرتها من كل قطعة في جسدها، هل تستطيع فك رموزه وحل شفرته؟ هل سيلبي الدعوة؟ ربما يعتذر أو يرفض، دعني وشأني، وقد تنازلت لك عن نصيبي، فداوني بطيب الحب والإحسان.

جذب فلقة فمها السفلى، كانت دافئة، أخذها برفق وضغط عليها، وبعدها استحوذ على فمها كله، أزاح الثياب عن كتفها، رأى صدرها المتوهج، امتلك جسده الصلابة والجرأة، ضمته إليها فأحكم بساعديه على جسدها وضغطها بشدة حتى تأوهت وهي تقول :

- برفق عارف..

مرّ بفمه على شعرها ووجهها المتورد، وقفا معا وراحت تتحرك به إلى غرفة كان بابها مواربا، فتحت الباب وأجلسته على سريرها وهي تقول له :

- انتظر..

نزعت ملابسها على طريقتها الخاصة..

قدماها جميلتان، بطنها ضامرة، وصدرها ناصع البياض مشوب بحمرة خفيفة، خصرها وهو يتحسّسه بدا ليّنا جدا وناعما، يأتي طائعا ثم يحجم، مناورة لم تبدأ بعد.

تبة تنحدر إلى كوة، تطيع وتتمرد، تتلوى وتسكن، تندفع وتتروى، لهاث محموم وفراغ صبر على وشك الانفلات، دخلت الفراش واستلقت، وراحت تئن تحت يده، تكوّرت وتمدّدت، انفردت وانقبضت كأصابع اليد، والفارس متى اعتلى ظهر المُهرة فرّت به.

بادئ لانتحاره أم سقط في فخ أعدّته بإحكام تُحسد عليه، ثم أعلنت بدء ضربة النهاية، استقبلها بكل جوعه وحرمانه وافتقاده وساعات وحدته الطويلة المريرة.

بكل ما فيه من غضب اندفع، كموجة محمومة دخل فيها، في حين بدا

جسدها كانفجار يأخذ معه جسده إلى صراع النار حتى يفضي به إلى تلال سمراء ساكنة بلا حراك.

أفرغته ميريت ثلاث مرات، ثم سكنا معا تحت الليل الذي ألقى بظلاله الكثيفة على مدينة التاريخ، وتأرجحت ستائر النافذة المطلة على النهر الساكن وفنادق الليل وعلب الكبريت على شاطئه الباهت.

من خلال فتحات صغيرة مربعة في نافذة حجرته المطلة على الحارة دخل ضوء الشمس فسقط على سريره، فتح عينيه ونظر في ساعته.. لقد انتصف النهار.

تمتم في نفسه :

- وكأنّي لم أنم من قبل.

ومثلما وضع جسده وجده، ممددا في منتصف السرير، ويديه ممدودتان إلى جواره، بينما أنفاسه تخرج مضطربة، خائفة لسبب لا يدريه، كأنها تقاوم شيئا يمسكها من الداخل، وفي حين يخرج يحاول العثور عليها، شيء ما في داخله يشعر به جيدا ولكنه لا يستطيع تحديده أو تعريفه.

حزن على من غابوا وانكسار على من خلفهم، قطار الموت على رصيف الانتظار في أسوأ أوقات العام ربما، أحيانا ما يشعر أن بداخله جنينا مشوها يلتقط أولى نسمات القهر، وينشد رشفات الأسى والافتقاد والحرمان والجنون.. أحيانا يشعر أنه سيكتمل ويخرج، وعند ذلك لن يتوقف عن التحطيم والاغتيال الخالي من الرحمة.

رحلة مخاض طويل مع الألم والصراخ الحاد سيخرج منها شيء، أحيانا يكون وحيدا مع الجدران والأشياء.. تحامل على يديه محاولا النهوض، كانتا في

حالة عجز، وكأنهما مهشمتين، تعتريهما سيولة ورخاوة، ترتعشان بصورة تدعو للخوف، حدق فيهما، ثمة بقع صغيرة داكنة، دم متخسر عند القبض عليه يتبدد ، هنا وهناك ، ثم اكتشف أن كل ملابسه مبقعة بالدم.

حاول للمرة الثانية أن يقف على الأرض التي راحت تتأرجح تحت قدميه فسقط، لم يبدو جريحا، صغيرا، وعاجزا، لم يبدو كرجل في الستين من عمره، وعليه أن يفكر في شيخوخته ، وأن يجلس والحسرة تقطر من وجهه وهو يرمق الشباب. لماذا يخسر حياته في مقابل أشياء لا تستحق العناء.

أمسك بالسرير وهو ينهض، ينبغي إذا أن يهتم بنفسه، وأن يفكر بطريقة جيدة ومختلفة، ليكن شعاره فليذهب الجميع إلى الجحيم، مَن حمل السلاح والأحلام والأمل ابتلعتهم الرمال وطواهم النسيان، لم ينالوا شيئا، لكن الآخرون حصدوا كل شيء، الفرصة متاحة، وربما لن تتكرر فيما بعد، لم لا يستغلها ويعيش ويستمتع بالحياة، ربما تمنحه كل ما يريد وأكثر، سكن جديد بعيدا عن جو الحارات والشوارع الضيقة والزحام، وأولاد يتّسمون بالقذارة، ونساء لا مباليات لا يعرفن سوى غزل الكلمات النابية الرخيصة والثرثرة والتباهي بفحولة الأزواج والقدرة على الإنجاب والمهارة في فن الطبيخ، رؤوس فارغة، وبنات هذه الأيام وتكبير الدماغ، ربما يحصل على شقة في أمريكا نفسها، والجنسية كذلك، ويعيش مع ميريت في مسكن واحد، فقط في مقابل بعض الجهد وتفتيح الدماغ، هل هذا صعب! كل الأبواب يمكن أن تنفتح لم لا، وتطل عليه المصايف والمنتجعات وقضاء العطلات، ويصبح رأسا برأس مع كبار الصحفيين والكُتّاب وتسعى العدسات لأخذ تصريح منه.

هل يترك ذلك كله؟ أهو حلم؟ الأحلام كثيرا ما تتحقق.
البنت الذكية المؤدبة تنتظر، ألّا يكون عاقلا، ما الضرر الذى سيعود عليه عندما يتعامل معها..
حركته بطيئة كسرب نمل يواجه مشكلة حقيقية مع الضفادع الكبيرة اللزجة ذات اللسان الطويل والعيون الكبيرة .
خمول وكسل، ما سر ذلك إذا، ماذا حدث بالأمس؟ هو فقط يشعر بهذا الألم يأخذ كل جسده إلى تقاعد نهائي، صار جسده ثقيلا ومنتفخا كفيل مريض عجوز في طريقه لمقبرة الأفيال.
آهات تنسحب منه، من داخله فيحدث احتكاكها كدمات وخدوش تخلف وراءها دما قاتما فاسدا، السادة الأتقياء وجرائمهم البشعة الملغومة، ماذا يفعل قِط مجروح وجائع في مواجهة سيل من البرودة وقطيع فئران تطالب بروحه في مقابل وعد بالنجاة، من أجل ماذا ؟ فأر صغير على رأسه ريشة وتاج، وعلى ذلك قبيحا وغير محبوب ولا مرغوب بالمرة، يُقسم أنه لن يلتهمه ولا يفكر في اقتناصه أو حتى قتله.
حسنا يا سلالة الجراثيم والفطريات، لنا يوم قريب، يأمل في نجاة، في لحظة ليس بعدها لحظة أن ينجو، أن يصير إلى عافية تمكنه من اعتلاء الإمساك بكل المخالب والمؤامرات والمكائد، فقط عليه أن يحلم، يتوهم وهو يموت.
الفئران لا تحرس حقول القمح، ولكنها تُخرّبها، تملأ بطونها بحبات السنابل، ثم تصنع جحورها هناك للموسم القادم..

بدا مندهشا وهو يرى الكدمات الزرقاء والجروح القطعية تعربد على جسده، وكأنه سقط ليلة الأمس في كمين من السحالي والفئران والخنافس، وكلها راحت تعربد فيه، وتترك بصماتها القبيحة على جسده..

قال في نفسه :

- ستحتاج إلى وقت حتى تزول، وبعدها أسترد عافيتي، سيحدث ذلك دون شك..

ولكن الأمر يحتاج إلى طبيب، ولعله يمكث بعد ذلك في البيت مدة كافية ثم يخرج بعد ذلك.

غسل وجهه وانتظر يرقب المساء :

- أنتِ عصفوري الجميل..

- عصفورتك رهينة فادفع بجناحيك للريح وحررها.

وغنّت ثم نهضت وراحت ترقص في عينيه، أخبرته رقصتها أنها منفاه وحضنه وخطيئته وغفرانه وعتقه وانعتاقه، شلاله وقارورة عطره.

- أنت فارسي، والليل البارد غاصبي.

خفق قلبه وارتجف كعصفور يراوده الحلم والأمل إلى غصن أخضر، إلى حضن، إلى ارتشاف قطرها ولمس خصرها وذوب خطوها.. اكتحال عينيه بنورها، سعى إليها فكانت قاب قوسين أو أدنى من الفقد.

صكّ أذنيه صوت غليظ :

- أنت فيما تحملق؟

ودخل به الضابط ذو الرتبة الصغيرة إلى حجرة صغيرة ثم أشار بيده للشابين اللذين هبطا من السيارة فانصرف بهما رجل بدرجة عريف.

ولم يكن حتى هذه اللحظة يدري ماذا فعل ليأتي إلى هذا المكان، ولا لماذا أخذه الضابط، وما هي التهم الموجهة إليه غير أنه مسالم!!

وراح ينتظر حتى قال الضابط :

- أعطني حقيبتك.

- هل أنا متهم، هل هناك شيء لا أعرفه؟ لابد أنكم مخطئون، الناس لا يتم القبض عليهم بهذه البساطة.

حدّق فيه الضابط بصورة وقحة ومزرية ثم قال :

- نحن رجال الأمن لا نُسأل عما نفعل.. نحن نحمي البلاد.

هتف متعجبا :

- مني؟!

- ليس بالضبط.. إنه اشتباه..

- إذا الجميع مشتبه به!

- تشبه شخصا مطلوبا.. سنتحرى الأمر ثم تنصرف..

- هكذا.. مجرد اشتباه، أليس هناك أجهزة اتصال حديثة وبيانات ومعلومات؟

قال الضابط في حنق :

- لا تثرثر كثيرا.

راح الضابط يقلب محتويات الحقيبة، ثم أفرغها على المكتب، ولكنه لم يعثر على شيء، مجرد متعلقات عادية، ملابس داخلية ومنشفة وأدوات حلاقة وجوارب وقطعة صابون وقارورة عطر وكتاب وأوراق بيضاء وأقلام مختلفة.

قال للضابط بعدما انتهى من التفتيش :

- هل وجدت أحرازا مهمة؟
رمقه الضابط بنظرة حانقة وهو يجلس على مقعد وراء مكتب صغير، وبدا أن الحجرة قد ازدادت ضيقا.
- أنت واثق من نفسك، أعطني ساعتك وحافظتك والأوراق التي في جيبك.
هَمّ أن يتكلم فأشار له أن يسكت. ووضع أمامه كل ما في جيوبه وهو يقول :
- إذا كان ذلك يريحك.
بطاقة الهوية.. كارنيه الصحافة.. صور شخصية.. نقود.. خطابات.. كروت أشخاص يعرفهم.
سأله الضابط :
- هل هذه نقودك؟
قال في لهجة ساخرة :
- سرقت بالأمس بيت وزير الداخلية.
اغتاظ الضابط وعقّب :
- إنها كثيرة.
- أحتفظ بالباقي في بنوك سويسرا والكاريبي.. أنا لست مغفلا..
- من طريق شريف؟
- وما هي معايير الشرف عندكم؟
- ماهي ميولك، وماذا تحب، وما رأيك في النظام؟
صمت ولم يجب على شيء.
- ما هي اتجاهاتك وأفكارك، هل تتبع جماعة معينة، هل تدعم حزبا معينا؟
ردّ في ثبات وهو ينظر في عينيه :

- وممّ أخاف، وهل لابد أن أخاف؟

قال :

- قد تبدو متهما.. هل لديك فكرة عن التاريخ؟

- التاريخ.. الشمس تتعامد على وجه الفرعون مرتين في العام، وهناك رأيت غرف المذنبين، وريا وسكينة، ومحمد علي جالسا يتحدث إلى مستشاريه، ويقال أن مينا وَحّد القطرين، وأن ابن المقفع لاذ بصمته وهو في السجن وقد أيقن أن الخلود في الصمت، وأن الكلام ليس إلا نفخ في بوق مقطوع، والناس على أي حال لم تعد تسمع، وأنهم في كل يوم يقطعون من جسده قطعة ثم يطهونها ويطعموه إياها، أكل لحمه ومات! هل هذا كاف؟

تمتم في ضيق :

- ما هذا الجنون؟

يقال أن الحلاج بعد أن مزّقوه وأحرقوه وذروا رماده في الرياح، لم يكن قد مات بعد، يقال نبتت له أجنحة وحلّق في الفضاء، وأنهم فشلوا في القبض عليه، صار نجما لا يطوله أحد.

- ما هذا الكذب والتخريف!

- هل أسكت؟

قال في غضب :

- سأجعلك تنطق بوسائل أخرى، ولكن حتى هذه اللحظة لا أريد أن ألجأ إليها.

- سبحان الله، وأين هي التهمة؟ أنا لا أعرف لماذا أنا هنا، وأجزم أنك أنت أيضا لا تعرف.

- نحن نتحقق من الأمر.
- أي أمر؟
- أنا هنا لأحافظ على النظام.. أنا هنا كل شيء.. استعمل خيالك.
- ماذا تعمل أنت؟
- ألم أعطك كل أوراقي!
- صحفي.. والآن ماذا تريد أن تخبرني؟
- عن أي شيء تريدني أن أخبرك؟ زوجة نيرون كانت داعرة، والبابا ألكسندر السادس كان يضاجع ابنته.
ثم توجه إلى الضابط واسترسل في كلامه :
- هل تقرأ في وقت فراغك؟ هل تعرف برومثيوس، جيفارا، السلطان عبد الحميد؟
أربد الضابط واحمرّ وجهه وبدأ الغضب يكسو ملامحه وراح يزفر ثم قال :
- أنت تجعلني أفقد أعصابي، وهذا ليس في صالحك.
- يجب أن أخاف..؟! هل هذا هو النظام هنا؟
- يجب أن تفعل لأن النتيجة ستكون قاسية.

* * *

أرشدته توجيهات الطبيب، وفي نفس الوقت أوهمته أن جروحه ستختفي سريعا إذا استعمل العلاج بحكمة وانتظام. ينظف جسده جيدا ويستخدم المطهرات وبعدها يدعك جسده بالمراهم ويتعاطى المضادات الحيوية.

عليه أن يبقى في سريره، ويتناول طعاما جيدا ليعوض ما فقده من الدماء، ولا يتعرض للشمس.

أَعدّ الماء الساخن، وتناول قرصين من العلاج، ثم خلع ملابسه، أبلغه الطبيب أن يتحمل الألم عند وضع المراهم..

الوطن ليس جميلا عندما يكون مجرد حجرة عليها حارس حقير.

- أنت مقرف وابن كلب.

وركله في ساقه فجعله ينحني من الألم، وقابله الضابط بقبضة قوية فوق ظهره جعلته ينطرح أرضا، وراح يتلوى من الألم، وراحت الضربات تنهال عليه كسيل من المطر وكذلك الشتائم.

- يا خنزير يا تربية البهايم.

هكذا رد على إهانته فاستشاط الضابط غيظا، وكأنه قد صار ورما خبيثا، وأوشك على الانفجار فراح يكيل له الضربات في كل مكان من جسده غير عابئ بشيء.. وراحت الدماء تسيل من فمه وأنفه حتى لوّثت أرض الحجرة.

وتوقف الضابط فجأة عنما دخل الحجرة ضابط ذي رتبة أعلى وقال في نبرة هادئة :

- انتظر عليه قليلا فهو في النهاية سيتحدث.

ثم اقترب من عارف وقال :

- أليس كذلك يا جميل. نحن لانطلب منك أن تخون أحدا أو أن تسلمه لنا، نحن فقط نريد بعض المعلومات لتساعدنا في الوصول إليه، ولابد أن مثلك يحب بلده ويخاف عليها، نريد أن نحميك ونحمي صاحبك، أنت تعرفه وتعرف أفكاره وهي خطر عليه وعلينا.

تحدثت معه ميريت عن فكرة التقديس عند قدماء المصريين وكيف يتحول الحاكم إلى إله، ويجعل رجال الدين لذلك الإله طقوس وشعائر. ورد عليها قائلا إن الحكاية ليست في التقديس، الحكاية في القبيلة، في تقبل الخضوع كوسيلة للحياة.

- ألن تتكلم؟

- قلت لكم لا أعرف .

ونظر الضابط الكبير قائلا :

- لا فائدة، إنه يحب المتاعب، راغب اعتنِ به جيدا.

مرة واحدة وافقت فيها روح الحياة أن تذهب معه إلى السينما لمشاهدة فيلم.

كان ذلك في أعياد الربيع وعيد ميلاده هو وإن لم يكن يهتم بذلك.. كان الضوء خافتا وهو ينعكس على وجهه فيبدو وجهه رائقا من جانب واحد، كان رائعا أن يراها سعيدة وباسمة، تضحك من قلبها، مّد يده وأخذ يدها وضغط عليها برفق، لم ترفض، منحته كل يدها في هدوء وسكينة، وراحا يتابعان مشاهد الفيلم، تلاصق كتفاهما ومالت برأسها على كتفه حتى شمّ كل عطرها في أنفه، وابتلع كل وداعتها وحلاوتها في روحه، غمره ضوؤها الرائع، مد أنامله إلى خدها، سمحت له أن يقبلها، وكأنما منحته فيها كل روحها ولهفتها واشتياقها ورغبتها في دخوله، أفضت به قبلتها إلى عوالم لا متناهية، عالمك يا روح يبلغ درجات الكمال ويرنو نحو التطهر، افتقادك موت.

عندما خرجا من السينما كانت يدها في يده، تبث إليه اقترابا نهائيا وفراقا إلى غير عودة..

سلكا شوارع جانبية ورئيسية وهما يتطلعان إلى الملابس والزهور وواجهات المسارح، تناولا طعاما سريعا ثم دخلا إلى إحدى المراكب النيلية.

جولة في النيل إلى الجانب الآخر من النهر حيث الكورنيش.. كأنها تريد أن تمنحه آخر ما لديها، تقطر كل روحها في الكلمات والنظرات والأماكن، لكي تجعله يفتقدها بعد ذلك حتى الموت والذوبان والتلاشي.

أهذا ما كانت تقصده في ذلك الوقت؟ لتقول له وداعا إلى غير عودة.. إلى غير أمل..

خَطْوُها رقص ولفتاتها عوالم حس ونشوة، وكان الهواء اللطيف يبعثر خصلات شعرها فتزيحه بيدها الرقيقة..

مرّا من أمام مبنى المصالح والمتحف المصري.. ضحكا عندما تأملا الأسدين الرابضين عند مدخل الكوبرى.. وكانت القوارب تمر ببطء.

لم يكن يعلم أن ذلك آخر مشوار وآخر لقاء وآخر عناق رقّى به إلى حيث الموت في الناحية البعيدة من النهر.

عندما خرج الضابط سمع تكّات المفتاح، ولم يكن بالحجرة ثمة نافذة.

صاح الضابط :

- يا نهار أبوك أسود، وكمان صورة الزعيم ومشخبط عليها، هل تكرهه إلى هذه الدرجة؟

نظر نحوه وقال في إعياء بالغ :

- وماذا يهمك أنت، أهو من بقية عائلتك؟!

تدفق الغضب إلى وجه الضابط وضرب المكتب بقبضته وقال :

- أنت من الجماعات المتطرفة إذا. ثم سأله :

- ومن هذه؟ ولاحت على وجه الضابط علامات متباينة وهو يسأل مجددا :

- من هذه الفتاة؟

- ومالك أنت..

قال في غضب :

- أجبني.

- صديقة.

- ما اسمها؟

- هذا لا يهمك ولا يعنيك في شيء.

هز الضابط رأسه وقال :

- الآن كل شيء في حياتك يهمني، نحن من نحمي البلاد، هل تفهم؟

وكرّر السؤال فأجابه :

- مريم.

- وما العلاقة بينكما؟

- من بلدتي.

- صديقتك، حبيبتك، تعمل معك، وأين تقيم.

أخبره أنها مريم فايز حنا وأنها متزوجة من أمريكي وتقيم في الزمالك، وأنها تعمل في شركة طيران، وأضاف أنّها عرّفته بصديقة أمريكية تعمل في الصحافة.

هنا توقف الضابط ونظر في سقف الحجرة وهو يغمغم :

- أمريكا؟ صحفية أمريكية؟ وزوج أمريكي؟
ثم راح يتابع بقية الصور لكن دون اهتمام، حتى صاح فجأة : ومن هذا؟ الآن عليك أن تتكلم وإلا حطمت عظامك، ما علاقتكما؟ الشركاء والخطط وجهة التمويل والعدد يا كلاب، انطق، تكلم، أنتم تريدون تخريب البلاد، ولن نسمح لكم بذلك أبدا.
"عبد الرحمن حامد المشري"
ذلك اسمه، كان ممن استقبله على باب الكلية ببطاقة تعريف كاملة، كان يسبقه بعام واحد، وكان من الناشطين في المجال الثقافي، وأحد الفاعلين في الحركة الطلابية داخل جدران الكلية، وكان يغطي بعض المؤتمرات الثقافية والسياسية ثم يعيد صياغتها وتدوينها داخل مكتب الكلية وكذلك الندوات التي تقام بها، كانت بشرته السمراء وحاجبيه الغزيرين وشعره القصير أهم ما يميز وجهه، وكان يتمتع بطول القامة، هادئ الوجه، نحيفا، شيء ما به جعله يرتاح لصحبته، وكانت أسرته تقطن باب الشعرية، والده موظفا بوزارة الأوقاف، ووالدته معلمة وليس له سوى أختين إحداهن تكبره وهي متزوجة، والأخرى بالمرحلة الثانوي، وكانت القضايا التي يثيرها تتعلق بالعمل العام والقضايا التي تهم الجميع مثل قضايا الحرية وحقوق الإنسان وقضية فلسطين وعلاقة الغرب بالشرق.. لم يكن له اتجاها خاصا ولم يكن تابعا لأحد، إنما كانت له أفكاره الخاصة، كان مستقلا في رأيه..
أما حقيقة عبد الرحمن الداخلية فلم يكن يعرف عنها شيء، صحيح كان يزوره في بيته ويتعرف بأسرته، ونمت بينه وبين والديه أُلفة جعلته كفرد في الأسرة..

في القاهرة أماكن تشعر أنك لم ترها ولا تحب أن تراها، وأماكن لا تحب أن تنتمى إليها، غريبة وغير مفهومة، وأماكن تشعر أنها مصابة بالجنون والهوس..

ما قاله عبد الرحمن قريب مما قالته ميريت ، أنتم تشبهون جمهورا أعمى يشاهد ملاكما أعمى وهم يعتقدون أنه سيفوز في النهاية ببركة الدعاء والتمنيات الطيبة.. للعملة وجهين وهما للأسف زائفين..

كان عبد الرحمن يتحدث عن التاريخ والجغرافيا بشكل عميق، كان يحفظ جملا كاملة من مراجع تاريخية، وذات مرة تحدث بالتحديد عن العالم الذي تم اغتياله داخل شقته أمام فتحي أبو العلا، لم يكن مرتاحا من ناحيته، فحدثه عنه قائلا :

- ابتعد عنه.

طلب منه أن يوضح له السبب، لكن لم يصرح، راح يلف ويدور حول الأسباب التي كان يضمرها في نفسه..

بعد التخرج من الجامعة ذهب كل منهما في طريق، ولم يعد يراه، قابله مرة واحدة في ندوة من ندوات معرض الكتاب، حينها تعانقا وتحدثا طويلا وأخبره عبد الرحمن عن وفاة والده ثم أخبره أنه سيسافر إلى شقيقته التي تعيش بدولة خليجية، وأنه لن يعود مرة أخرى.

وأفاق على لطمة قوية على وجهه :

- سأجعلك تنطق ونادى على رجل بالخارج وهمس في أذنه، ثم انصرف وعاد بعد قليل ، قال له الرجل الذي دخل عليه :

- تعاون مع الباشا فهناك أساليب أخرى تنتظرك في الطابق السفلي حيث لا يسمع أحد ولا حتى الجدران.. ستختفي، هكذا ببساطة، وهو يطرقع بسبابته وإبهامه..

هتف هو تحت وطأة الألم :

- قلت لا أعرف شيئا ولست مهتما.

ولم يكد ينتهي حتى هوت عليه يد الرجل الغليظة كالمطرقة.

- هناك دائما كلام يا ابن العاهرة.

جعله الشتم يفقد صوابه فبصق في وجهه وكال له الشتائم دون أن يعبأ بما سيلاقيه من صنوف الضرب والسحق.

كان منهكا وكان الرجل في أوج نشاطه، وصاح الرجل ذو الوجه المجدور والملامح الممزوجة بالبلاهة :

- تشتمني يا ابن اللعينة، سوف أذيقك الهوان.

في ذلك الحين جلس الضابط مسترخيا على مقعده يدخن سيجارة مارلبورو، مديرا قرص الراديو حيث انبعثت منه أغنية يا حبيبتي يا مصر..

وأطل عليه صوت أبيه نافذا من خلال الجدران المصمتة "الرجال يا ولدي لا يعتذرون ولا يركعون لأنهم على حق الحرب يا بنى تنتهى عندما ينحدر خصمك إلى الحضيض ويتجرد من إنسانيته"

ثم نهض الضابط وراح يتحرر من ملابسه، وراغب يستنفد روحه حتى يجعله كخرقة بالية، وساعتها يشعل فيها

النار فتصبح رماداً.

حادث طيف أبيه داخل عقله :

- وماذا أفعل يا أبي؟
- قاوم.
- حتى متى؟
- حتى ينهزم عدوك و تنتصر.
- على من؟
= على من يسلبك حريتك وكرامتك، الإنسان بلا حرية ولا كرامة مجرد حيوان..

وأدرك أن راغب لن يتركه، وأدرك هو أنه سيجعله على ركبتيه منهزما.. دع جسدك لي، وبمرور الوقت بدأ يتماسك، وأصبح يمتلك قدر من الشجاعة..

* * *

أخذ وجهها بكلتا يديه، كانت شفتاها ترتجفان، وعيناها تتراخى، شعر بشفتيها ناعمتين ، وكان به جوع بلغ به حد التوحش؟ وكان راغب على ثقة أن صراخه لن يتجاوز جدران الغرفة العازلة، والمكان تحت الأرض، ولن تجدي أي محاولة لكي يفلت أحد من هنا، إنها ببساطة كالمقبرة.. عُلّق راغب من قدميه في حبل يتدلى من السقف، فراح الدم يتدفق إلى رأسه بينما يترك أقدامه هناك لتبرد وتتخدر، راح يقاوم ثم سكن فجأة وبدا كأنه فقد الحركة وفقد المقاومة، أنزله وراح يغمر رأسه في حوض مملوء بالماء.. وبدا راغب مشوّشا وغير مؤكد أنه حتى يقف على قدميه..

* * *

راح يتحسّس جسدها، كل بروزاته وقبابه وتخومه، كانت كالبحر كلما أوغل فيه فقد وراءه كل الطرق المؤدية إلى البر، أمسك فلقتها السفلى وكأنه

يقضمها فصرخت يا مجنون.. ثم تركته فأخذهما معا، كانت مريم دافئة، وكانت تقول له برفق يا صديقي ودعنا نتعلم.

استلقت مريم على ظهرها واستلقى إلى جوارها حتى قالت :

- ضع رأسك هنا قريبا من قلبي، وراحت تضمه وتربت عليه.. تعرف عندما أتزوج ويكون لي ولد ماذا سأسميه.. سأسميه على اسمك أنت.

* * *

في آخر اليوم جاء الضابط الصغير وقال :

- تذكرنا أن عبد الرحمن عندنا، وأنه محكوم في أحد قضايا الاغتيالات، وأنت بطبيعة عملك تعرف أن ذلك عملنا، ونحن لا نحب أبدا تعذيب الناس ولا حتى المساس بحقوقهم، نحن نحرص على حياة الناس وحماية المجتمع، أنت طبعا تقدر ذلك..

وكان يفهم تماما أن مريم تؤمن أنها زوجته التي لن تتزوجه أبدا..

فاته ما حدث لزهرة، ولم يعرف تفاصيل الحكاية إلا من جاره العجوز الذي صعد لكي يطمئن عليه قال :

- زهرة المسكينة تعرضت لحادث مؤسف.

وكأنما كان يخمن أن الأمر طبيعي وعادي، ربما فصل من العمل، أو سرقة.

ولكنه لم يقل شيئا، وكأن الكلام انعقد على لسانه..

فأردف العجوز قائلا في أسى وتوجع :

- كانت عائدة من عملها في مصنع الأقمشة...

وهنا اعتدل في جلسته وأصغى سمعه للعجوز وهو يُكمل حديثه :

- تعرض لها السفلة في الطريق..

- تحرشوا بها؟!

- كاد الأمر أن يصل إلى حد الاغتصاب.

قاطعه في عجلة :

- وماذا حدث؟

- أنقذها الناس بأعجوبة.

- كيف حدث ذلك؟

- روت لي زهرة أن شابين في توكتوك أرادا أن يُدخلاها بالقوة فصرخت مستنجدة ..

- هل هي بخير؟

- تعرضت لبعض الإصابات في الوجه والرقبة.

- تمتم في مرارة :

- حتى الطريق أصبح من الفوضى بمكان.

- ذهبت معها إلى قسم الشرطة وحررنا محضرا بالواقعة.

قال ساخرا في نفسه :

- حاميها..!!

زهرة تقطن الدور الأرضي مع ولديها وأبوها وأخوتها الخمسة، تزوجت ولم تتخطّ الثامنة عشرة من عمرها، من ينظر إليها يرى امرأة جاوزت الأربعين رغم أنها لم تتخط الخامسة والعشرين بعد.. وبعد مشاكل لا أول لها ولا آخر وضرب وتهديد بالقتل والخطف والحرق، حتى انتهى الأمر بالطلاق، واحتفظت بالأولاد لعدم رغبة الأب فيهم.

كانت تهتم بالعجوزين، ترتب لهما البيت وتعدّ لهما الطعام، كما كانت تمر على شقته أثناء تواجده في الخارج فترتبها..
أتمت التعليم حتى الصف الثاني الثانوي الفني ثم تزوجت، وبعد أن انفصلت عادت للتعليم وحصلت على الدبلوم التجاري.
- لا أدري ما أقول، ترى ماذا نفعل لنواسيها ؟!
قال العجوز وهو يهز رأسه ألما :
- مسكينة زهرة .
قال مؤمنا على كلام العجوز :
- تزداد أعداد المساكين يوما بعد يوم.
ومضى العجوز منصرفا وتركه وحيدا..
بعد العاشرة تلقى مكالمة هاتفية من صديقه فتحي أبو العلا يخبره أنه سيعود إلى القاهرة بعد بضعة أيام.
ارتدى ملابسه وتسلل إلى الخارج دون حتى أن يدري إلى أين؟ وعاد بعد ساعتين دون أن يدري لماذا خرج من الأصل؟
بهدوء شديد سيبحث من جديد عن تذكارها المفقود، نصف روحها كما أخبرته في آخر مرة قبل أن تغيب غيابها الطويل، ومرة بعد مرة تأتي إليه الخُطب التي كَلّ سماعها فبصق عليها لقبحها وصبّ عليها جامّ غضبه.
عام كامل شتاء، شهور منتفخة بالعدم، أكاذيب ووعود تنتشر مثلما ينتشر الجراد وذباب الصيف، أجسام هلامية يلقيها مَدّ غليظ كي تجتاح بطغيان بالغ القسوة خلايا المدينة المريضة، تهاجمها أرتال اللصوص والقتلة والسفاحين وأهل الفساد وهوس الحالمين وتجار المتعة، وفي النهاية يضيع

حق زهرة وغيرها.. تجتاحه موجة طغيان وهو شجرة وحيدة جذورها ضاربة في رمال الصحراء الناعمة، خائف وضائع ووسيلته في كل وقت البكاء وندب الحظ واجترار الأحزان، كأنها جمعية يتعاون في دفعها ليأتي دوره ويقبضها، يموت ببطء مثلما تختفي نملة تحت تل من رمل يزحف إليها ببطء أو يسقط عليها فجأة دون أن تدري، قمر عار في ليل تعرّى من كل ما يستر قبحه وجرائمه وطغيانه.. طغيان يخلفه طغيان.

"اسمع يا ابن الخنزيرة" هل سينساها؟ لكن راغب سينسى ولن يتذكر ما حدث له ولا لغيره.

"وأنت من أي مكان خرجت يا لقيط، من مرحاض يا ابن الصرمة" راغب سينسى لأن الكثيرين يمرون عليه كل يوم، أما هو فلن ينسى أبدا طالما روح تسكنه، نصف قمره، حيث يزداد يوما بعد يوم بُعدا واغترابا.

القاهرة التي مسحها من شرقها إلى غربها ومن شمالها لجنوبها جريا وراء تحقيق عن فساد أو دعوة لإصلاح شارع أو إظهار لظاهرة قمامة متفشية أو إبراز فساد المحليات أو حتى جرائم الأسياد..

ميريت قالت له أنت لن تحقق شيئا هنا، وسألها وكأنه لا يدري، فقالت في بساطة ووضوح، بلدك هي بلد الرجل الواحد، تفتح له الصحف والمجلات والندوات ومحطات التلفاز، بينما الباقون وإن كانوا أكثر موهبة في الظل، ولا يلتفت إليهم أحد إلا في لحظات الاغتيال أو القتل العمد، ساعتها ينالون حظا قليلا من لفت الأنظار، ويكون الحديث عنهم بمثابة مَن هبط من السماء وكأنهم كانوا معجزات..

هل كان مندهشا من كلامها أم كان يفهم حقيقة الوضع، ولكنها عالجت ما اعتراه من ذهول وقالت :

- زرت القاهرة ثلاث مرات وتعلمت اللغة العربية بصورة جيدة والأمر في النهاية لا يحتاج إلى عبقرية.

كان يريد أن يُخبرها أنها على حق وأنه يعرف ذلك جيدا ولكنه يغالط ويكابر. لكنه توقف.. أفضل ما يفعله الآن أن يجمع كل ما عنده من الكتب في كومة كبيرة ويلقي بها في الخارج.

أعياه البحث، فتمتم من هول ما يعانيه :

- كان في حافظة نقودي، هل سقط هناك؟

بحث وبحث ولكن خابت كل أمانيه في العثور عليه، كان لابد أن يحتفظ به في مكان أكثر أمنا.. هل يبدو ذلك مقدمة لضياع كل شيء؟ هل يشتري قطعة أخرى تشبهها؟ ولكن أين لمسة روح، أين رائحة روح؟

روح.. ميريت.. مريم.. ميريت، موعدها قريب، مشاريعها، وأحلامها، ومفاجآتها، تُرى ماذا أعدت لي؟ ماذا أفعل الآن؟ وكان الليل يذهب به بعيدا عن كل شيء..

في العاشرة حمل كتبه ومجلاته وأوراقه في كرتونتين ونزل على الدرج، كان العجوز وزوجته في طريقهما للخروج حين لمحاه هابطا.

= إلى أين يا بطل؟

قال في سخرية :

- إلى أقرب مطعم ليستخدم هذه الأشياء.

= وماذا فيها؟

- كتب تاريخ وجغرافيا وثقافة وفن..
- ألن تحتاج إليها؟
- كلا، ليس بعد الآن، لقد فقدت قيمتها بالنسبة لي.
- ربما تحتاج إليها من يدري؟
- الأكاذيب تضر ولا تنفع.
قالت المرأة :
أنت تتحدث اليوم بطريقة غريبة، ما بك؟
وقال العجوز متبعا كلام زوجته :
- على أي حال كل زبون سيقرأ ما فيها وهكذا ننشر الثقافة بين الناس.
قال في هدوء وكأنه يسخر :
- اطمئن، الحكومة الأمريكية والغرب يموّلون مشاريع محو الأمية.
عند ذلك هز العجوز رأسه وقال في حزن :
- أنتم جيل مظلوم ، في صدوركم براميل من الغضب ، ربما تنفجر ذات يوم.
- ربما يعرفون ذلك ويتجاهلونه ، وربما يغذونه أكثر حتى يكبر لينفجر .
قال العجوز في ثقة :
- مشكلة هذا البلد ليست في فقره.. اسمع لم لا نكمل هذا الحديث بالليل، فأنا أريد أن أهزمك مثل كل المرات السابقة، كما أن أمك أعدت لك الحلوى التي تحبها من الأمس، سنعود في الخامسة..
- هل تريد هذه الكتب؟
ردّ العجوز وهو يشير إلى صدره :
- أنا؟! يا ألله.

- إذا هي من نصيب زبائن الفول والطعمية.
قال العجوز مازحا :
- لا تقل أنها كتب تاريخ.
- نصيحة طيبة.
- شاب عاقل.
طرق على باب زهرة ولكن لم يكن أحد بالداخل، كان البيت يبدو خالياً من الحياة .
- لن تجدها.
- أين ذهبت؟
- لزيارة خالها، وستعود أخر النهار.
ودع العجوزين ومضى إلى الخارج.

* * *

الشوارع مزدحمة وكأنها أفرغت ما فيها، عوادم السيارات، الأصوات، العفن، والفوضى، وتلاميذ المدارس كالأمواج العالية تتابع وتبتلعه.
ماذا قالوا لكم اليوم؟ أهو درس جديد، أم إنه كإعلانات التلفاز؟ هل أنتم أذكياء حقا مثل ما يقال أم أنكم تصدقون كل ما يقال وتمتصونه مثلما تمتص الإسفنجة الماء؟ هل تخافون منهم، أم يخافون منكم، هل أروى لكم حكاية.
يجمع الأولاد عيدان البوص ويضمون بعضها إلى بعض حتى تصبح حزمة كبيرة، ثم يربطونها جيدا بالحبال، ويحملونها إلى النهر، يخلع الأولاد ملابسهم فيصبحون عراة، جلودهم سمراء، وعظامهم كرؤوس الدبابيس، ويقذفون

أنفسهم داخل الماء، ويعتلون الحزم التي صنعوها، ويتنافسون في السباق، يضربون الماء بأيديهم، وتبدأ الرحلة حتى يفوز أحدهم.. لماذا يسيطرون على كل شيء، كل شيء فاسد؟ قال العجوز ذات مرة ذلك مناخ فاسد ولا يُصلحه سوى التغيير.. فالملابس إذا كثرت فيها الرقع وجب التخلي عنها.. ولكن هل من الممكن أن يستيقظ الموتى؟

راح يتجول في الشوارع دون هدف، ودون خطة، ولم يَعد يعنيه ما سيحدث في نهاية التحقيق.

تلقى مهاتفة من الخارج.. ميريت تخبره أنها ستتأخر بضعة أيام خرى، تساءل.. ماذا أعدّت لي ميريت، هل أجد مريم إن ذهبت إليها الآن؟ ثم أزاح الفكرة من رأسه، منذ وقت طويل لم يشاهد عرضا سينمائيا، ربما الآن هو الوقت المناسب لذلك.

كانت الساعة تدق التاسعة عندما عاد للبيت، طرق باب زهرة، وفُتِح الباب على وجه أبيها قائلا في صوت حاد :

- ماذا تريد؟

- مساء الخير.

قال الرجل على مضض :

- أهلا..

- كيف الحال؟

أجاب بامتعاض :

- تمام..

- هل زهرة بخير، كنت أريد أن أطمئن عليها.

- زهرة ليست هنا..
وأغلق الباب في وجهه.. تابع الصعود وهو يهز كتفيه متمتما ما حكاية هذا الرجل؟
أمضى السهرة عند جيرانه، تناقش مع جاره العجوز فيما كانا يتحدثان فيه صباحا وهما يمارسان لعبة الطاولة، وتناول معهما العشاء وأحضرت لهما السيدة الحلوى وكانت فطيرة من التفاح، وانصرفت لتنام لأنها متعبة.
- يختار الناس الحكومات لتنهض بالبلاد.
= ليست عندنا انتخابات نزيهة.
- هذا هو الحال في كل البلاد التي حولنا.
= اليابان كانت مثلنا.
- ولكنها الآن شيء آخر.
= ما السبب؟
- يمكن أن تقول الوعي والذكاء والانتماء.
= هل من الممكن أن نصبح مثلهم؟
- هناك شروط.
= مثل ماذا؟
- أن نتغير تماما.. نتحول من القبلية والعائلية إلى دولة قانون ومؤسسات.
= ولكنهم يقولون أننا دولة مؤسسات.
- ذلك ما يبدو، أما الحقيقة فعكس ذلك تماما، وليس كل ما يبدو حقيقيا.
مكثا معا حتى ما بعد الثانية عشرة، قال العجوز اليوم هزمتك ثلاث مرات لمرتين، أرى أنك تتقدم.

صعد إلى شقته، وأخمد جميع المصابيح، واستلقى بملابسه دون أن يبدلها.
أيقظه طرق الباب فنهض ليفتح، بدا وكأنه لم ينم، فتح الباب ليطلّ وجه زهرة تقول :
- صباح الخير.
- صباح الخير يا زهرة.
قالت وكأنها تعتذر:
- عدت بالأمس متأخرة، ذهبت لزيارة خالي، كان مريضا.
- حمدا لله على سلامته.
- الحمد لله.
ثم أردفت قائلة :
- يبدو أنني أيقظتك من النوم، هل تريد شيئا أفعله لك قبل أن أذهب؟
- الحمد لله أنك بخير، أشكرك.
- طالما أنك بخير فأنا بخير.
ولم تقل له شيئا مما حدث لها، ولم يُرد أن يخبرها، ربما فيما بعد عندما تهدأ الأمور وتتعافى نفسيا ممّا حدث لها.
عاد إلى الداخل واستلقى على سريره، وأشعل سيجارة على بطن فارغة، ثم نهض وصنع كوبا من الشاي، وراح يستعرض قنوات التلفاز واحدة بعد الأخرى، ثم أطفأه وذهب يقلّب في دفاتره وأوراقه..
رسالة هاتفية "كن بخير" رسالة من ميريت مع قبلات وأشواق، وأخرى من صديقه فتحي، وأخرى من صديق طفولته، ومضى الوقت بطيئا حتى أعلنت الساعة العاشرة، عند ذلك سمع طرقا على الباب فتساءل في نفسه من يا

تُرى؟ وعندما فتح الباب لم يكد يصدق عينيه، هتف في فرحة غامرة مريم.. لا يدري كيف حدث ذلك وفي وقت لا يمكن ضبطه، ولكنه وجدها في حضنه تقبّل وجهه وهي تقول كم اشتقت إليك يا صديقي الغريب، وبادلها الشعور وأنتِ أيضا لا تعلمين كم اشتقت إليك يا مريم، ثم تراجعت خطوة للوراء وهي تنظر في سعادة وهتفت بي أن بدل ملابسك سريعا سأنتظرك في السيارة، سألها إلى أين؟

مكث معها طيلة الليل يتجولان في الشوارع والمقاهي ومحالّ الملابس، سألها عن زوجها فأخبرته أنه مشغول في أعماله، استقلّا قارباً نيليّا في الثالثة صباحا، قطعا وقتا طويلا في الماء، معظمه صمت وتأمل، حكى لها كل ما حدث منذ أن التقيا قبل عشرة أيام، وهي أخبرته سافرت وعادت، أخبرها بتفاصيل رحلته إلى الجنوب وما دار بينه وبين ميريت، ورأى دموعا في عينيها، مد يده ومسح دموعها وأمسك وجهها بيده وقبل جبينها، وسألته عن "روح" فكاد يصرخ من الألم، كانت تعرف كل تفاصيل القصة هو أخبرها بكل ما كان، قالت له أنا أيضا أسكن فيك، وأنت تسكن عندي، أخبرته أنها تغير عليه، حتى من روح وميريت، وعندما أُخبرها بما قالته ميريت، وماذا تكون مفاجأتها؟! وأُخبرها أنه لا يدري ولا يعرف، قالت له مريم مرات كثيرة أنها أمه وعشيقته وأنه لو أحب كل نساء الدنيا فهي ستظل تجربته الأولى التي لا تنسى أبدا، وكانت تغار أحيانا، وتغضب أحيانا، وتخاصمه وتصالحه، كانت تفرح عندما تنظر في عينيه وهي تراهما يضحكان، أكلا وشربا معا، وسألها عن الحمل، فأخبرته أنها أنجبت طفلا اسمه عارف، وسألته هل من أخبار، وكان جوابه الصمت.

ثم عادت وسألته عن العمل، وهل عاد أم لا؟ قال باقتضاب شديد أنه مازال موقوفا عن العمل، وسألته لم لا تترك العمل في صحافة الحكومة وتعمل في الصحافة الخاصة، قال بأنه يفكر في ذلك وأن صديقا له يريد أن يبدأ مشروعا بهذا الخصوص، أخبرته أنها هي الأخرى ستفعل ذلك قريبا جدا، وأنها عرضت على زوجها الفكرة ووافق، وقال عندما عرضت عليه أن يشاركها العمل طمأنها بأنه سوف يعمل معها، تناولا معا طعام الغداء في بيتها، وجلسا يتحدثان حتى ما بعد الثامنة، ودعته أن يقضي الليلة معها، ولكنه قال بلطف أنه لا يريد أن يسبب لها ألما، وأوصلته بسيارتها حتى بيته ودعاها للصعود ولكنها أخبرته أن لديها موعد هام ولابد أن تذهب وسألته متى ستعود ميريت، فأخبرها أنها ستعود بعد أيام قليلة، وقبل أن ينصرف قالت له أن يهتم بنفسه وألا يجعلها تقلق عليه، وأن يتصل بها في الصباح، ثم غادرته، وتسلل بعدها إلى الداخل.

بعد يومين عاد صديقه من الخارج ولكنه لم يقابله إلا بعد يومين، اتصل به وأخبره أنه عاد، وأنه يريد أن يقابله خارج البيت، وعندما تقابلا، تعانقا طويلا، ثم سارا بحذاء كورنيش النيل وقت غروب الشمس، في حين كان الجو مشبعا بالبرودة ورائحة المساء المختلط بالحشائش والطحالب، تحدثا عمّا فعلت بهما الأيام..

حكى له صديقه بعضا ممّا يعتمل في صدره :

- عانيت كثيرا مرارة البُعد ونظرات الآخرين المؤلمة، لا شيء أقسى وقعا على النفس من نظرات تراك في وضع أدنى، الغربة ليست في المكان، الغربة في الناس، الأماكن في نظري تظل محايدة حتى يتدخل فيها الإنسان بنظرياته

وأفكاره وعاداته، قد يتحول المكان إلى صديق، وقد يصبح عدوا في منتهى الخطورة، ولكن على أية حال فقد تجاوزت القلب، تعاملت بعقلي في معظم الأحيان، ما لك وما عليك، ولابد أن تعقد صفقات، ولابد أن تكون ثريا لتشعر بالسعادة والثقة والقوة، والثراء له أشكال وألوان، ولابد أن تبني وراءك جدارا قويا تستند إليه وقت الحاجة، الخوف لا يأتي عبثا، ولا بد له من بواعث وأسباب وظروف، وأولها الميل عن الصواب، عليك أن تصغي أكثر ممّا تتكلم، أحيانا كنت أذهب في رحلات صحراوية، كنت أقارن بين سكون الصحراء وضجيج المدينة المفزع، كنت أقول كيف يخاف سرب نمل في هذه الصحراء من الموت والدهس، من يقدر أكثر على إثارة الخوف السكون أم الحركة، ليس سهلا أن تجمع المال، عندي كلام كثير لكن دعك من كل ذلك الآن..

وكان عارف يُصغي، لم يُرد أن يقاطعه وتركه يسترسل وقال :

- حمدا لله على سلامتك.

- ألن تسألني عمّن رأيت هناك؟

قال ذلك وهو ينظر بعيدا، عند ذلك تذكر عارف رسالته فأمسك بيده وسأل:

- ماذا رأيت؟

- روح..

تمتم بها، وعند ذلك انتفض كأن قلبه قفز من مكانه، شعر بجسده كله ينساب ويتفكك، وأن أفكاره تسيل مثلما يسيل المطر على زجاج النوافذ ثم يتجمع عند الإفريز ليشكل خيطا من الماء المتصل إلى الأرض.

- روح..
يقول أنه رأى روح.. كيف، وأين، ومتى؟ سافرت للعمل، تزوجت، خُطفت، هاجرت؟ لَم تخبره، ولم تحاول مرة أن تُلمّح له، وأن تُطمأنه، ألم تكن تحبه؟ أكان وهما؟ هل كانت تخاف منه ولكنها لم تعد تعبأ به، كأنها ألقته للوحدة والضياع والفراغ وفقدان الثقة، ألم تخبره أن قلبها صار وطنا له وأنه صغيرها؟ لماذا إذا تركته في العراء دون حماية، دون حتى أن تخبره إلى أين، ولماذا، ومتى ستعود؟ أم أنها لم تكن تعرف كل ذلك وأنها مثله كانت مُقتادة، قال ذلك وكأنه يشكّك في كلامه أو حتى أنه فقد الثقة في ذلك، أو ربما ليتأكد فقط من الغياب الدائم.
- رأيت روح.. فعلا رأيتها!
وراح صديقه يؤكد له مرة بعد مرة أنه رآها، ولكنه مازال لا يصدق، يشعر أنه نائم، وأنه مجرد حلم ما إن يصحو منه حتى يجده سرابا.
- كانت بصحبة رجل عربي، كان وجهها حزينا، وملامحها باهتة، كانت منطفئة، لم تكن أبدا سعيدة.. رحت أراقبها طوال تواجدها في المول الذي كنت أعمل به، ولم أجعلها أبدا تلحظ وجودي، اتخذت قرارا أن أذهب خلفها لأعرف إلى أين، وعرفْت.
أمسك عارف بيده وهزه وهو يكاد يصرخ :
- هل عرفت حقا؟
- بل وتمكنت من رؤيتها والكلام معها، لم يكن كلامها كثيرا، ولكنها أخبرتني بكل ما حدث، تزوجت من رجل خليجي ثري يكبرها بثلاثين عاما، قالت لي في مرارة وأسى أن والدها باعها، وسألتها لماذا لم ترفضي، ولماذا لم تخبري

عارف؟ ولماذا لم تتزوجي منه؟ فقالت إن الأمر كان شديد التعقيد، وسألتها عما ستفعل فأخبرتني أنها طلبت منه الانفصال، سألتها هل ستنجحين في ذلك؟ أجابت بأن الأمر أوشك أن يصل إلى نهايته، ولأنها قد تعود قريبا.. روحها أصيبت بشروخ وعقلها بضمور، تشعر وكأنها أصبحت عجوزا عمرها سبعة آلاف عام، جسدها وعقلها بحاجة إلى وقت طويل حتى يعودا لما كانا عليه.. ذكرْت لها أنك ما زلت تنتظرها حتى آخر عمرك، فتعجبت منك ونعتتك بالمسكين الذي لم يكتفِ من تعذيبها له دون أن يرى منها ما يجعله ينتظر! حتى قُلت لها يُحبك.. عندها سكنت وهي تتنهد.. فأردفت وينتظرك، وذاك كل أمله.. عند هذا الحد سكتنا معا.. فنهضت لتنصرف، فقلت لها قبل أن تمضي أراكِ قريبا.. قالت إن شاء الله.

وكأنه استيقظ من نوم طويل.. ماذا حدث؟ ماذا قلت؟ أين سأجدها، أين أنتظرها؟

وأجاب فتحي :

- قالت أنك ستجدها..

صرخ في وجهه :

- كيف لم تخبرني؟ ورغم ذلك الإبهام شعر بسعادة عارمة واسترخاء عجيب.. وتمتم :

- نعم سأجدها، ولو نقبت عنها تحت كل حجر.

قال فتحي :

- قد يكون الأمر أبسط من ذلك بكثير، وربما بطريقة عفوية، والآن لندع ذلك جانبا، الآن وقد أخبرتك سابقا بأنني سأقوم بإنشاء صحيفة أسبوعية مستقلة، وأننا سنكون معا هل توافقني الرأي؟

أجابه :

- نعم لكن الأمر يتطلب دراسات وحسابات وموافقات، وكذلك إدارة، وعمال، وصحفيون، وأهداف، وموضوعات، ومكان، وماذا نريد منها ولمن سنوجه خطابنا وحساب النتائج.

قال فتحي أبو العلا في إصرار:

- على بركة الله.

* * *

ثلاثة أيام قبل أن يلتقي بها، يعيد ترتيب أموره، يطمئن على زهرة، وعلى صديقيه العجوزين، ويضع تصورا عاما للصحيفة، يُعد وجبة ساخنة بيديه، ويحتسي كوبا من الشاي، ويُعد قهوة تركية، ثم يأخذ حماما ساخنا وبعدها يكن ما يكون.

لف المنشفة حول خصره وجلس يحتسي كوبا من الشاي مع سيجارة راح دخانها يتطاير من حوله، ساعة الحائط تشير للعاشرة، ليس أمامه سوى الانتظار والترقب.

جاءه صوت الباب، دقات وليس جرسا.. تساءل عمّن يكون الطارق في هذ الوقت، ليست زهرة بالتأكيد، ربما يكون الأخرس، ربما جاره العجوز، من يا ترى؟ وسأل مِن وراء الباب مَن؟

ولم يجبه الطارق، مدّ يده وفتح.. تقهقر للوراء وسكن في مكانه مأخوذا بما يرى.. ثم انفرجت شفتاه :

- كيف؟

وضعت يدها على فمه وهي تقول:

- مررت على مريم وأخذت منها العنوان وها أنا، أحببت مفاجأتك.. أتعب أنا من أجلك.. هل ستقف طويلا هكذا وتدعني على الباب؟ ألست ضيفتك؟

استعاد وعيه وكأنه قد أفاق من غيبوبة فهز رأسه أن نعم.

وأغلق الباب بعد ما دخلت.

- أنت مندهش طبعا ولكنها يا صديقي ليست المفاجأة التي وعدتك بها، إنها شيء آخر تماما.

ثم استعرضته بعينها، ربما نسي أنه يقف أمامها بمنشفة على خصره.

- هل كنت تستحم؟

أومأ برأسه إيجابا دون أن ينبس.

- هل تناولت طعامك؟

قال :

- قبل دخولك مباشرة.

قالت :

- كنت أتمنى أن نتناوله معا، لكن لابأس فالليل طويل وحتما سنشعر بالجوع.

قال متمتما :

- يبدو كذلك.

قالت وهى تتأمل المكان ومحتوياته :

- بيتك متواضع جدا، أقل من متواضع، في الحقيقة أنت تستحق أكثر من ذلك بكثير.. ثم استطردت :

- أنت ذكي للغاية.. ورمقته بنظرة فاحصة وهى تردف :

- تبدو أطول وأنت عار من ملابسك، تبدو كأجدادك.

سألها مندهشا :

- وهل رأيتِ أجدادي؟

قالت :

- يا عزيزي هناك سمات مشتركة تتميز بها الشعوب.

ثم نظرت إلى وجهه وقالت :

- لماذا تبدو وكأنك حزين لزيارتي؟!

قال نافيا :

- لا.. على الإطلاق، أنا سعيد، وسعيد جدا.

قالت دون أن تهتم بكلامه :

- من فضلك اصنع لي شايا، أريد أن أتناوله من يدك وعلى طريقتك، هل هذا ممكن؟

- ممكن طبعا.

ودلف إلى المطبخ بينما استرخت في المقعد وعقدت ساقا على ساق، وتخففت من بعض ملابسها، وأعادت تصفيف شعرها، ثم نادت عليه قائلة:

- مريم أخبرتني أنها جاءت إلى هنا.

قال مؤمّنا على كلامها :

- نعم.
- مريم رائعة، ألست معي في ذلك.
أجابها :
- أعرف.. صديقتي وأنا أعرفها جيدا.
- تحبها؟!
ثم نهضت وتقدمت نحو المطبخ .. في حين أجابها هو :
- ما بيننا أكبر من الصداقة.
قالت في نبرة هادئة وهي ترفع حاجبيها وترمقه بنظرة خبيثة :
- جربتها؟
ثوان مرّت قبل أن يجيب :
- تذوقت كيف يكون لي صديقة مثلها.
قالت وهي تتجول في أرجاء الشقة :
- أها. ثم قالت وهي تقترب منه :
- هل اتخذت قرارا؟
- بشأن ماذا؟
- بشأن ما أخبرتك به من قبل.
وقد حدثته من قبل أنها تريد أن تصحبه في جولة طويلة في كل ربوع مصر حتى القرى والنجوع تريد أن تستكشف كل ما قرأته وعرفته عن مصر بشكل واقعي.
قال :
- الأمر يحتاج إلى خطة وترتيب.

- والرواية.. هل أتممتها؟

- تقريبا.. لم يتبقّ منها سوى النهاية.

جلسا معا متجاورين فقال سائلا :

- أخبريني عنك؟ وبماذا أخبرك؟

- بكل شيء.. عن شخصيتك، أهلك، حياتك، أصدقاؤك، اهتماماتك.. كل شيء.

قالت في لامبالاة :

- هل هذا مهم لك؟

وأومأ بنعم.

قالت وهى تعتدل :

- ليس مهما أن أكون بنتا، أو امرأة، أو متزوجة، أو مطلقة، هذه تقاليدكم أنتم، بالنسبة لنا الأمر ليس بتلك الأهمية، الحياة الشخصية تظل خاصة جدا، كل شخص يديرها حسب ما يرى أنها تحقق سعادته، كل واحد يراها من منظوره، عمله، أفكاره، أحلامه، تصوراته، حياته الاجتماعية، الجنس أمر طبيعي، غريزة كباقي الغرائز، الرجل يحب أن يستمتع بالمرأة وكذلك المرأة..

أنتم الشرقيون تحبون أن يكون ذلك داخل إطار معين ونحن لا نهتم كثيرا بذلك، أنت كرجل شرقي يمكن أن تخون زوجتك، لكن لا يحق لها أن تفعل ذلك، وإن فعلت فالأمور ستكون وخيمة جدا، لديكم ازدواجية هائلة، تريد أن تستمتع بامرأة ولكنك تخشى من سلوك الناس ونظرتهم وحكمهم.. نحن نمارس ذلك بحرية تامة، بيننا أمور كثيرة نختلف حولها، لكن نريد أن نتفق

على عدة أمور حتى نسير معا بشكل جيد.. نحن شخصين ناضجين، وسنعمل معا، وسنلتقي كثيرا، أرجو فقط أن تفهمني.

- أنت شخص مجنون جدا.

- أنا شخص عاقل جدا.

- لكل شعب خصوصياته.

- لندع ذلك الآن.. اسمع..

- ماذا؟

- نريد لهذه الليلة أن تكون بداية أعوام جديدة قادمة، نريد نبيذا وسجائر وحلوى وفاكهة وفطائر، ليلتنا ستكون حافلة وفاصلة، سوف نملأها بشتى المفاجآت، سنذيب كل الفواصل والحدود، الليلة سنجعل عالمينا عالما واحدا، سنتحدث في كل شيء جائز وغير جائز، ولن تخلو ليلتنا من الحب وسوف نمارسه في النهاية بكل جنون، أنا أريد تأكيد مفاجأتي.

روح.. نصفه الضائع، مداره وكوكبه ودائرته ونفوذه، بَعدها صار نصف إنسان، نصف ميت تلفظه القبور، يبحث عن طريق ضمن عشرات الطرق وكلها قادته إلى الطريق الخطأ، لافتة ضمن عشرات اللافتات وكلها زائفة.

روح.. فتحي أخبره أنها ستعود، وربما بطريقة عفوية.

ثم سكتت فسألها :

- ماذا عن المفاجأة؟

قالت :

- قبل أن أخبرك أريد منك شيئا.

قال :

- وما هو؟

قالت وهي تدنو منه :

- قبلني.

ترى ما هي مفاجأتها، هل فاته شيء مما كان، هل نسى شيئا ضاع منه ووجدته وتريد أن تعيده إليه؟ هل عثرت على تذكاره القديم؟ هل تريد أن تخبره أنها تعرف كل ما بينه ومريم، ماذا يمكن أن تكون المفاجأة؟

قالت وهى تشبك يديها حول رقبته وقد بللت فمه بشفتيها :

- أنا حامل في شهري الرابع، ذهبت قبل سفري إلى طبيب، وقد أخبرني بذلك.

بحث عنها في كل مكان ظنا منه أنه سيجدها فيه، معبد، مسجد، كنيسة، داخل البيوت، وطاف بالميادين والحدائق والنوادي والمتاحف، ودخل أقسام الشرطة زحفا على بطنه، واعتلى السواري، وولج فجوات الليل وركب الجسور والطرق، ووقف عليها كعلامة طريق، وسافر بكل طرق المواصلات لكي يهتدي إليها، ماذا سيقول لها الآن، هل كان يتصور أن مجرد ممارسة لمرة واحدة، ممارسة عابرة ستجلب طفلا وفي هذا الوقت بالذات، بماذا سيرد عليها إن هي سألته كيف خنتني بهذا الشكل؟ هل يقول لها تخلصي منه الآن وفي أسرع وقت، وأن ذلك من صالحنا نحن الاثنين؟ وهل يعنيها أمر الجنين؟

سألته مندهشة :

- لا تبدو عليك البهجة.

- ماذا يجب أن أقول؟

- تخبرني أنك سعيد.

- أنا سعيد.
قالت وهى تجلس بهدوء :
- أظن ذلك سيقوي العلاقة بيننا، سأضع حملي في أمريكا، سنسافر معا، هذا مستقبلك.
قال وهو يشعر أن الأرض تهتز من تحت قدميه :
- مستقبلي!
- نعم، كن معي.
بحث عنها في كل الوجوه، سبح في الليل لعلها صارت سمكة، وسافر في السماء لعلها صارت نجمة، أو قمرا أو شمسا، وكل الطرق أرسلته لغيرها، مَن حال بينه وبينها؟ من أبعدها وجعل قلبها بيتا حزينا يطرد من يحبه؟ من وضعها في جيبه وأغلق عليها وحرمها الهواء النظيف ؟ من فرض عليها حصارا كي لا تراه ولا يراها، مطعون بها، مسجون بعدها، منفي وهي فيه، بعدها تحولت الكلمات إلى حروف للموت، كل مكان بمثابة قبر عليه شاهد مجهول.
- انت ساكت!
قال وكأنما الكلمات قد تبددت :
- وماذا سأقول، لقد استولت مفاجأتك على كياني كله.
-حسنا.. ما تراه مناسبا لك.
هو لم يعد هو الآن، شيء ما جعله يتغير، ولا يعرف ما هو.
قالت :
- ربما لأنك لا تستطيع تحديد ما تريد.

- هل تعتقدين ذلك؟

في لهجة حاسمة قالت :

- بكل تأكيد، أنت تترك الأمور عائمة وغائمة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، نهض وهو يقول سأذهب الآن..

نظرت في دهشة وهى تقول :

- هكذا وأنت عار.

قال :

- وأنا عار.. هذه مفاجأتي لنفسي .

عاريا سيخرج، وعاريا سيعود، بدون نصفه، بلا تاريخ، بلا جغرافيا ، يحمل على كتفيه اسئلة ميريت، وثقل كل الليالي القادمة، والتي تحمل قمرها العاري إلى حيث لا جهة، بلا روح سيمضي، إلى التي صارت بعيدة وهي لا تدري أن في بيته الآن امرأة، وعما قليل ستنزع ملابسها وتجلس على السرير منتظرة قمرها العاري ليحط عليها كي تنقش على بدنه آثارها الجديدة وهويتها الجديدة وطابعها الخاص، تختار له اسما جديدا تدعوه به، والملابس والعطور وطريق الخير والشر، والتعامل مع الجماعات والأسلوب المناسب للرد.

- ميريت.

التفتت إليه وقالت :

- عد سريعا ولا تتأخر.

قال :

- سأعود فانتظريني حتى أحدثك عن التاريخ والجغرافيا ونحن على الفراش..
ابتسمت ولم تقل شيئا.

تلمس بيده الدرج الذي يكتنفه الغموض وتموج فيه ظلمات انقطاع الكهرباء، ما الذي أطفأ المصابيح، مر على شقة صديقه وتوقف على باب زهرة، ثم دلف من الباب إلى الخارج.

بداية قد لا تنتهي، وغياب بلا إياب، وروح تتخطّفها الأيدي والبلاد والعباد.

ابحث عن سمرا، صوت محرم فؤاد، هل هذا هو الوقت الملائم لها، الشكل والتحديد، لا يدري أثمة طريق للخلاص، بينما تبتلعه الشوارع، يترك قدميه لها، وجسده للفراغ، وعيناه في وجهه تبدوان كحفرتين، كثقبين أسودين.

ستنبعث من النوافذ ممارسات غريبة وغير مفهومة، ليلة الخميس وما فيها، اعتلاء، إفراغ، سقوط.. لا، ليست ليلة الخميس، إنها ليلة الثلاثاء، الخامس من حزيران، هل كان لديه تصور آخر لإنسان بداخله أحلام ورغبات، وأن في استطاعته إنشاء السلام مع نفسه ومع الآخرين، هل كان محررا من كافة القيود التي من شأنها وضعه داخل قفص من حديد.

ليلة الثلاثاء.. لم يكن يتصور أن الأمر يمكن أن يتطور ويصل إلى هذا الحد ليحيل جسده منفى لروحه، وأن روحه هي الأخرى ستصير قطرة، مجرد قطرة سيلتهمها طحلب خاوي الإحساس ليتضخم بعدها فيحمله إلى آخر مكان يتصوره.. وطن منفي..

هل اكتشف مؤخرا أن الموت نفسه وإن كان حقيقة في حد ذاتها إلا أنه في نهاية الأمر بداية جديدة لا يمكن أن تأتي متأخرة بمقدار جزء ضئيل من الوقت، ولا يرصده كل إنسان.

لو يتسنى له الخروج من جسده، من هذا المكان، لو عادت إليه روحه، لو استطاع أن يعبر حدود الأنظمة، لو ولو يا بني، وراح يخطو عبر الشوارع التي استحالت في عينيه أكواما من الجثث وبقع الدماء تلطخ الأرض والجدران وتملأ الأرصفة السوداء، بينما الجدران رغم ذلك لا تخلو من الملصقات والمنشورات والجرافيك بصور الزعماء والعبارات الطافحة بالغضب.

أخبر صديقه عما حدث معه في التحقيق، وأرسل سلاما لحازم وأسماء، وكانت زهرة قد أخبرته أنها ستنتقل إلى سكن آخر مع طفلها بجانب بيت خالها، وأن أبيها كان يريد تزويجها من بلطجي آخر يشتري منه الحشيش والأفيون على سبيل الشكك.

"حورس" لم يكن ليحمي أحد، كان طفلا، مجرد طفل، و "ست" شر، طوفان جراد قادم من كل التخوم القريبة والبعيدة، هل الأسطورة مجرد كذب في تاريخ يبدو كما لو أنه فيلما كرتونيا في إمكانه إبهار الأطفال؟ هل هو تاريخ مزيف؟ "أوزوريس" الطيب قبل عام من انتفاخ بطن "إيزيس" مات، أخبرها الطبيب أنه حمل كاذب، وبكت "إيزيس" حتى صنعت دموعها أخدودا صار فيما بعد نهرا، وكان "ست" في كل يوم يتجرد من ملابسه ليستحم فيه، وبعد أن يفرغ من استحمامه يبول ويتغوط.

حكاية ليست أخيرة يا روح، وعبد الحليم يبدو هذه المرة ضعيفا وصوته خافت للغاية وهو ينشد، عليكِ سلام الله يا أرض أجدادي.

شيء ما حدث بعد ذلك، جعل الولد يفقد حماسه القديم وعشقه القديم ويمشى في الطرقات عارياً كقمر في لية وحيدة حزينة، لا ينير، ولا يبدو جميلا.

شيء ما جعله يفكر في العزلة واختراع ما يمكن أن يكون بديلا عن حب الوطن الذى يعرفه.
غاص في ظلام الشوارع ووحدة الليل وبرودته، فيما كان صوت الشيخ رفعت يبزغ رائقا وصافيا رغم كل ما حوله، ربما يضع له طريقاً للخلاص. وكان كل شيء قد نام مبكرا ليلة الخامس من حزيران، وبدا كل شيء معتما وغارقا في النوم، ليس جديدا، ليس قديما، بينما الدودة الحمراء الصغيرة قد فضت شرنقتها وخرجت منها. وراح يسير طيلة الليل في الشوارع وجزء من النهار كالتائه، لا يعبأ بشيء، لا بجسده ولا بمن حوله.
قالت أنه سيجدها وبطريقة عفوية، وفيما هو يزرع الشوارع مشيا، كغريق كان يبدو، أخذته أقدامه إلى الميدان الكبير وهاله ما رأى، تجمعات بشرية تندفع رافعة اللافتات، وصوت هتافها يزلزل الأماكن القريبة والبعيدة.
"يسقط الظلم.. يسقط الإستبداد .."
رأى جسده ينتعش كأنه يتنفس من جديد، وراحت قدماه تتسارع في الخطو وتنخرط في قلب الميدان والتجمعات الهائلة، ووجد نفسه يهتف.
حادثته نفسه ربما يجدها بين الجموع، ربما تلك هي اللحظة التي تحدثت عنها روح "سيجدني بعفوية.." تلك هي اللحظات الفارقة..
راح ينخرط في وسط الجموع ويهتف مع هتافاتهم المدوية.. "يسقط الاستبداد.. يسقط القتلة.. يسقط الظلم.."

* * *